

الفصل الرابع عشر

مجموع المصنفات الأبقراطية

سأتولى مناقشة التقاليد الأبقراطية بإيجاز في آخر هذا الفصل . أما الآن فلا بد لي من الاعتراف بأن معرفتي بنصوص أبقراط كانت، حتى وقت قريب ، مستمدة في الأغلب من الطبعة الأنيقة التي أعدها إميل ليتريه Emile Littré وألحق بمجلدها العاشر فهرساً دقيقاً مفصلاً^(١) . إن علماء اللغة « الفيلولوجيين » الذين عانوا كثيراً في إعداد الطبعة التاسعة للنص الأبقراطي يمكنهم أن يطعنوا في عمل ليتريه : إلا أن أمثال هذه المطاعن لا تنقص من مكانته العالية ، ولا ترفع منزلتهم الوضيعة قيد أنملة . ولقد مر بين يدي ، خلال السنين الثلاثين الماضية ، عدد من طبعات هذا النص ، وترجماته ومختصراته ، وحلل بعضها في مجلة إيزيس . وحين كنت أعد هذا الفصل أخذت ، حرصاً مني على تحديد معلوماتي ، أتفحص في كثير من الدقة ، المختارات التي نشرها باليونانية والإنجليزية وليم هنري William Henry وصموئيل جونز Samuel Jones وإدوارد تيودور وتينجتون^(٢) Edward Theodore Withington في مكتبة لويب للكلاسيكيات . لم يكن ليتريه من اللغويين المدعين ، بل أجاد اليونانية وأحاط بعلم الطب ، وهو حيث واتاه التوفيق مرشد ممتاز . أما جونز وتينجتون فقد كان من حظهما أن أديا نصيهما اليسير من هذا العمل بعده بثلاثة أرباع القرن . وأنا أميل إليهما وأرغب بوجه عام في الأخذ بتوجيهاتهما في المسائل المختلف فيها . كنظرية جونز مثلاً في نتائج الملاريا الوبيلة وباللغة الأثر في العالم القديم ، أما وتينجتون فأنا مدين بصورة مباشرة لكثير من دراساته في تاريخ الطب . وبصورة غير مباشرة لمساهمته الطبية في مراجعة معجم ليدل Liddell وسكوت Scott اليوناني - الإنجليزي^(٣) .

أصالة كل أو بعض المؤلفات الأبيقراطية

لا يعرف على وجه التحقيق مؤلفو تلك الكتب التي أشار إليها أفلاطون ومينون Menon ، ومن هنا دعوى المشككين بأن « أبقراط » « اسم بلا مؤلفات » وأن ليس ثمة مؤلف أبيقراطي أصيل . وموضوع أصالة مؤلفات أبقراط يختلف اختلافاً جوهرياً عما يقال عن أصالة مؤلفات أفلاطون وأرسطو ، لأن بين أيدينا من مؤلفات هذين قدراً كافياً أثبتت أصالته ، ويمكن أن يتخذ مقياساً للحكم على غيره . والمسألة التي نحن بصددتها أقرب إلى معضلة مؤلف الإلياذة والأوديسا . ونستطيع أن نسلم بصحة كثير من المصنفات الأبيقراطية بالروح نفسها وبالتحفظات عينها التي نسلم على أساسها بصحة أشعار هوميروس . على أن شخصية أبقراط ملموسة أكثر جداً من شخصية هوميروس .

وهذا القدر كاف من الناحية العلمية ، لكن ينبغي أن نكون حذرين . فإن الروح والمنهج الأبيقراطي تحددنا بالاستناد إلى مجموع من المؤلفات الأبيقراطية ، ومن المتعذر علينا الادعاء بأن فئة معينة من هذه المؤلفات صحيحة بالضرورة ، لأنها تتميز بالطابع الأبيقراطي لا غير ، وإلا وقعنا في حلقة مفرغة . على أن ما أورده أفلاطون ومينون كان لتحديد المميزات الأساسية للتعليم الأبيقراطي ، وربما ساعد على تنظيم المصنفات الأبيقراطية في جدول تبعاً لأرجحية أصالتها . وليس في وسعنا أكثر من ذلك ، وفيه ما يفي بالغرض الرئيسي الذي نقصد إليه .

وبصرف النظر عن ترجيح الباحثين لصحة نسبة المصنفات الأبيقراطية فإن الموجود منها لدينا في مراتب مختلفة من مراحل التأليف وجودة الحفظ . وبعضها جيد التأليف ، وبعضها الآخر أقل جودة ، وبعض ثالث ما زال على صورة مسودة أو ملاحظات أولية لم يقدر لها أن تحرر كما ينبغي . ومنها (ككتاب الأخلاط مثلاً) ما جاء تأليفه بمحض المصادفة . وفوق هذا منها ما لم يصل إلينا بنصه الأصلي الكامل . لأن أقدم هذه المؤلفات نقل إلينا على صورة أدراج

(volumina) فكانت بذلك أكثر تعرضاً للعطب من تلك التي وصلت بالشكل المجهود . وأطراف الدرج واهية جداً لا تلبث أن تنكسر وتتساقط ، الأمر الذي يوضح السبب في أن الكثير من المخطوطات القديمة (لا الأبرقراطية وحدها) وصلنا بلا أول ولا آخر . ولم يؤثر هذا على النصوص الأدبية ، لأنه عرف فيها وكانت محترمة ، فلم يعتد عليها ، وأما المصنفات الطبية التي لم يتيسر دائماً لأمناء المكتبات أو للناسخين الوقوف على معانيها والتثبت من تراكيبها فإن أقسامها المفقودة عرضت أحياناً بنص آخر . وقد يقسم الدرج الواحد إلى قسمين أو أكثر ، وقد تجمع أقسام من أدرج مختلفة في درج واحد . والواقع أن تأليف بعض الكتب الأبرقراطية يتعذر تفسيره على غير هذا النحو . وباختصار فإن بعض هذه النصوص سيئ التأليف ، وبعضها الآخر - سواء أكان حسن التأليف أم سيئه - لم يصل إلينا بنصه الأصلي . وكانت الأدرج تتمزق عرضاً فيتولى جمع أطرافها المتباينة قوم مهملون .

وتختلف مشتملات المؤلفات الأبرقراطية بقدر ما تختلف أشكالها . فبعضها موضوع للأطباء أو لطلاب الطب ، وبعضها لغير المختصين ، وبعضها الآخر دونه المدرسون ليستعينوا به فقط على تنسيق محاضراتهم . أو الطلاب تحت التمرين ليعزوا به ذكراهم . ومنها مذكرات دون فيها الطبيب نتائج اختباره ، أو مقالات وبحوث كتبت بعناية خاصة لأغراض إقناعية أو بيانية . وإذا كانت أكثر الكتب تمثل تعاليم مدرسة كوس فإن بعضها يعكس تعاليم المدرسة المجاورة والمنافسة في كنيديوس ، وبعض آراء لعلماء آخرين . ويسهل علينا إدراك ذلك كله إن لاحظنا أن المجموعة التي انتهت إلينا كانت في الأصل مكتبة كوس (أو قسماً منها مع زيادات محتمة من الخارج) . فقد كان لمعهد كوس أو لمدرستها أو لثقافتها مكتبة تجمع فيها كتب المؤلفين الكورسيين وغير الكورسيين إهداء أو شراء ، وحرص على ذلك أطباء كوس أنفسهم حبا في الاستطلاع أو رغبة في الدرس ، أو أحرزها لها أطباء كوس من أجل الدرس أو بدافع الفضول .

وإزاء هذه الفوارق في الأشكال والمشتملات تتجلى للباحث الصعوبة البالغة . أو بالأحرى الاستحالة . التي تقوم دون تحرى أصالة كل نص . هل من المستطاع أن ينسب هذا النص أو ذاك إلى أبقراط . أو إلى أحد أتباعه الأذنين أو الأبعاد ؟ أو أن كاتبه أحد المغالطين المعنيين بأمر الطب . أو أحد الفلاسفة الذين هم أقل احتفالا بالطب منهم بالأفكار العامة ؟ وفيما يتعلق بالناحية الأخيرة يثبت الطابع الخاص - كأن يكون أبيقورياً أو رواقياً - تأخر عهد التأليف . وهنا يغدو التحقق من صحة النسبة إلى المؤلف بالذات مسألة قليلة الخطر نسبياً . ذلك أن الذى يعيننا خاصة إنما هو تمييز المصنفات الأبقراطية من مصنفات المدارس الأخرى . وترتيبها . من ثم . فى سياق تاريخى تقريبي . إن جانباً من هذه المصنفات قديم واضح القدم . سابق للعهد الأبقراطى . وبعضها يعود إلى العهد الأبقراطى والمدرسة الأبقراطية . سواء أكان أبقراط بالذات هو واضعه أم كان سواه . والبعض الآخر متأخر عن العهد الأبقراطى ، لكنه مع ذلك استمرار للتعليم الأبقراطى . ومما يزيد المشكلة تعقيداً أن بعض المصنفات المتأخرة قد نسجت فى كيانه نواة تعليم قديم . ذلك أن الكثير من الكتب يشبه المباني التاريخية التى بنيت أجزاءها ثم رمت فى عهود مختلفة . حتى ليكاد السؤال عن تاريخ بنائها يغدو بلا معنى ، إذ على الباحث أن يحقق ، قدر الإمكان ، تاريخ كل طبقة على حدة . ومع ذلك فالباحث الذى يجهد فى تعيين تاريخ كل واحد من الكتب الأبقراطية لا يلبث أن يجد أن الظفر بحلول تامة دقيقة أمر بعيد المنال . وينبغى ألانحاول المستحيل بل نبذل غاية الجهد ونقتنع بذلك .

إن علماء اللغة يأملون أن يحلوا مثل هذه المعضلات عن طريق نقد النصوص . أى عن طريق البحث اللغوى . إلا أن ذلك يعرض الباحث لشبهات مماثلة . إذ كيف السبيل إلى التثبت من أن اللغة التى بلغتنا هى لغة الأصل ؟ إن الحرص على استخراج كل الخصائص اللغوية التى يتميز بها نص ما ضرب من الغرور لدى المحدثين . وكان قدماء الناشرين (كاهليينيين مثلاً) أكثر

عناية بالمادة الطبية منهم بأسلوب التعبير^(٤)، فلم يترددوا في تجديده إذا ما خطر لهم ذلك . وغالب الظن أن فتور المهمة أو ازدياد العمل قعد بهم - ولحسن الحظ - عن أن يقدموا على ذلك ، وآثروا أن يحافظوا في نسخهم ، قليلاً أو كثيراً ، على النص الأصلي أخذاً بأهون السبل .

وهناك ظاهرة غريبة في جميع النصوص الطبية القديمة ، وهي أنها كلها مكتوبة باللهجة الأيونية . وهذا أمر مدهش لأن جزيرة كوس (وكذلك كينيدوس) اجتاحتها جيوش الدوريين Dorians وبسطت عليهما سلطانهما ، ومع هذا بلغ الصيت الثقافي للمستعمرات الأيونية المجاورة حداً غدت معه اللهجة الأيونية رمزاً للعلم والنبيل « والأناقة والكياسة » . ولندكر أن هيرودوت الذى لم يكن أعرق في نسبه الأيونية من أبقرراط كتب هو الآخر باللهجة الأيونية ، وهذا مما يساعد الباحث ولو إلى مدى محدود ، لأن مجرد وجود الكتاب الطبي باللغة الأيونية لا يثبت ضرورة أنه تابع للعهد الأبراطى ، لأن اللغة إذا اقترنت بموضوع ما درج استخدامها في كل المؤلفات المتصلة به^(٥) . على أن اللغة الأيونية التى دونت بها المصنفات الأبراطية ليست واحدة ، بل هى فروع من الأيونية الأم . ويكاد يكون ذلك شبيهاً باختلاف اللهجات في مؤلفات هيرودوت ، لأن اللغة كانت بالنسبة إلى المؤلفين مصطنعة تختلف عن اللغة التى كانوا يتكلمون^(٦) . والكتاب الذين كانوا يقيمون في تلك الزاوية الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى خضعوا لمؤثرات كثيرة (دورية وكرتية وكارية وأيونية وأتيكية) بحيث غدت لهجتهم تقبل في يسر مؤثرات وخصائص متنوعة .

الشروح الأولى

إن ما قام به الشراح الأولون سهل علينا درس المصنفات الأبراطية ، ولكن لسوء الحظ أقدمهم إطلاقاً ، وهو هيروفيلوس الخلقدونى Herophilos of Chalcedon (النصف الأول من القرن الثالث ق.م) ، متأخر ، بل متأخر جداً بحيث لا يمكننا من التفريق بين مصنفات القرن الرابع وتلك التى تقدمتها في

القرن السابق . هذا إلى أنه لم يكن شارحاً فحسب بل كان خبيراً في علم التشريح ومن أعظم المشتغلين به في التاريخ القديم . ويليه من الشراح اثنان من تلاميذه هما باخيوس التناجرى^(٧) Bacchios of Tanagra وفيلينوس الكوسى^(٨) Philinos of Cos أما باخيوس فقد نشر كتاب الأوبئة الثالث Epidemics III وعلق على ثلاثة من المصنفات الأبقراطية الأخرى ، وألف معجماً للألفاظ العويصة . وأما فيلينوس (ويعتبر مؤسس مدرسة الطب التجريبي) فقد قيل إنه وضع بعض الشروح الأبقراطية ، وألف ستة كتب عارض بها باخيوس . وغنى عن البيان أن تصفح الآراء المتباينة التي خلفها الشراح الأبقراطيون في القرن الثالث من الأمور المفيدة ، لكن هذه النصوص ضاعت كلها .

واشتهر في النصف الأول من القرن الأول ق.م . ثلاثة من الشراح البارزين هم هيرقليدس التارنتى Heraclides of Tarentum وجلوسياس التارنتى Glaucias of Tarentum وأبولونيوس الكيتيوني Apollonios of Cition وفي القرن الأول للميلاد كان كلسوس Celsus (النصف الأول من القرن الأول)^(٩) كثير الاعتماد على المصنفات الأبقراطية . وعمد ايروتيانوس (النصف الثاني من القرن الأول) وهيرودوت (النصف الثاني من القرن الأول)^(١٠) . وكلاهما من روما : إلى وضع بعض الحواشي التوضيحية . وأهم الشراح القدماء وأوسعهم عملاً هو جالينوس (النصف الثاني من القرن الثاني) . فقد وضع من الشروح على مؤلفات أبقرط ما قرن بين الاسمين . حتى غدا الكثيرون من العلماء (غير الواقفين على تاريخ الطب) يتحدثون عنهما معاً – أبقرط وجالينوس – كما لو كانا أخوين توأمين وكانهما يمثلان عصرًا واحداً ومدرسة واحدة . وهذا أمر في غاية السخف لأنه يفصل بين الرجلين ستة قرون من الزمان . فقرب جالينوس من أبي الطب شبيه بقربنا نحن من أبي الشعر الإنجليزي – جيوفري تشوسر Geoffrey Chaucer . وبين المؤلفات التي وضعها جالينوس كتاب يبحث في الصحيح والمتحول من كتب أبقرط ، De genuinis scriptis Hippocratis ، وقد فقد ، وأشار إليه

حنين بن إسحق (النصف الثاني من القرن التاسع)^(١١) في فهرسه ، مقررأ أنه كانت لديه نسخة منه . وأنه أعد له ترجمة وخلاصة بالسريانية خص بها عيسى بن يحيى ، ونقل هذه الترجمة السريانية إلى العربية ابنه اسحق بن حنين (النصف الثاني من القرن التاسع) وقدمها لعلي بن يحيى^(١٢) ، وعنوانها « كتاب في كتب أبقراط الصحيحة وغير الصحيحة » ، والظفر بهذا الكتاب ونشر نصه العربي أو ترجمته أمر مرغوب فيه للغاية .

عرف باخيوس ثلاثة وعشرين مصنفأ تقريبأ من المصنفات الأبقراطية ، وعرف منها إيروتيانوس تسعة وأربعين . ويشتمل الفهرس الملحق بطبعة ليثريه على سبعين . وإذا كان ما عرفه إيروتيانوس قد بلغ تسعة وأربعين ، ففي هذا ما يؤذن بأن زمانه عرف نوعأ من القانون الأبقراطي . ولعل كلمة « قانون » أقوى قليلا مما ينبغي أن نقول ، لأنه لا سبيل إلى قانون إلا إن كانت هنالك سلطة تتولى إصداره . والراجع أن المجموع الأبقراطي ، في ذلك الزمن القديم ، لم يزد كثيراً عن مجموعة من المجلدات شبيهة بتلك المجموعات ذات الموضوع الواحد التي تنسق على أساسها بعض المكتبات . وقد عرف علماء البيزنطيين في القرن السابع ، أو قبل ذلك بكثير^(١٣) ، بعض أمثال هذه المجموعات ، ثم ترجمت فيما بعد - كلها أو بعضها - إلى السريانية والعربية .

ولنعد الآن إلى التقاليد اليونانية ، وتستطيع المخطوطات أن تمدنا بأوثق المعلومات منها . لكن هذه المخطوطات تصعد لسوء الحظ ، إلى عصر متأخر ، ولا يتخطى شيء منها القرن العاشر . وتشتمل المخطوطات القديمة على قوائم للمصنفات الأبقراطية ، وأقدمها مخطوط فندوبنيس Vindobensis med. IV من القرن العاشر ، وفيه اثنا عشر مصنفأ لاغير . ويشتمل مخطوط ماركيانوس فينتوس Marcianus Venetus 269 في القرن الحادى عشر على ثمانية وخمسين . ويصعد مخطوط فاتيكانوس جرابيكوس Vaticanus Graecus 276 في القرن الثاني عشر إلى اثنين وستين^(١٤) .

النسخ المطبوعة

كان أول ما طبع من مؤلفات أبقراط ترجمات لاتينية لبعض مقالاته المتفرقة ، أو بحوثه القليلة . وخير مثل لذلك طبعات أرتسيلا Articella (١٤٧٦-١٥٠٠) (١٥). وهناك طبعات قديمة أخرى ، ارجع فيها إلى مقال كليس Klebs وما أثبتناه في تعليقاتنا هنا . وبالجملة مصنفات أبقراط هي أشهر المطبوعات العلمية القديمة ، لأنه كان ثالث ثلاثة اشتهروا بين المؤلفين القدامى ، وأولم وثانيهم - وهما أسبق منه بشوط بعيد - البير الكبير وأرسطو (١٦).

وأول نشر عام لمؤلفات أبقراط هو تلك الطبعة اللاتينية التي أعدها فايوس كالفوس Fabius Calvus (٧٢٣ ص ، روما ١٥٢٥) ، والطبعة اليونانية التي أخرجتها مؤسسة ألدن Greek Aldine (٢٣٣ ص ، البندقية ١٥٢٦) ، وكلتاهما على أوراق ذات قطع كبير ، folio volumes والثانية هي الطبعة الأولى الحقيقية (شكل ٧٠) وهذه هي الحلقة الأولى لسلسلة طويلة من النشر . وأهم الطبعات القديمة الطبعة اليونانية الثانية التي أعدها جانوس كروناريوس Janus Cornarius (بال ١٥٣٨) (شكل ٧١) ، واليونانية - اللاتينية التي أخرجها أنيوس فوس Anuce Foes (على أوراق كبيرة القطع folio فرانكفورت ١٥٩٥ ، وقد تكرر طبعتها مرات كثيرة) على أن يرجع عند استعمالها إلى معجم فوس Oeconomia Hippocratis alphabeti serie distincta ، (على أوراق كبيرة القطع folio ، فرانكفورت ١٥٨٨) (شكل ٧٢) ، واليونانية اللاتينية التي قام بها جوان أنطونيوس فان درلندن Joan. Antonides Van der Linden (مجلدان من قطع الثمن octavo ، لندن ١٦٦٥) (١٧). ويكفي أن نذكر من بين ما نشر أخيراً الطبعة اليونانية الفرنسية التي أعدها ليتريه E. Littré (عشرة مجلدات ، باريس ١٨٣٩-١٨٦١) (شكل ٧٣) ، والطبعة اليونانية التي أخرجها فرانسيسكوس زخارياس أرمرنس Franciscus Zacharias Ermerins (ثلاثة مجلدات ، أوترخت ١٨٥٩-١٨٦٤) ، والطبعة اليونانية لهيجو كوليڤاين Hugo Kuhlewein (مجلدان ، ١٨٩٤-١٩٠٢)

إن مجموع مؤلفات الطب اليوناني Corpus medicorum graecorum الذي ترعاه الأكاديميات الألمانية يضم ، ولا عجب ، المؤلفات الأبقراطية ، ولم يظهر منها إلا قسم واحد يشتمل على اثني عشر كتاباً حررها هرمان ديلز Hermann Diels وج.ل. هايرج J.L. Heiberg ، المجلد الأول القسم الأول (١٥٨ ص . ليبزج ١٩٢٧)^(١٨) . وهذا المجموع يلتزم ترقيم صفحات طبعة ليثريه ، وفي ذلك اعتراف لها بفضل عظيم .

والترجمتان الإنجليزيتان البارزتان تمت أولهما على يد فرانسيس ادمز Francis Adams (في مجلدين ، لندن جمعية سيلينهام ، ١٨٤٩) ، والثانية ، وهي أحدث ، على يد و. ه. س. جونز W.H.S. Jones . أ. ت . ويتنجتون E.T. Withington (في أربعة مجلدات ؟ مكتبة لوب للآداب القديمة ، ١٩٢٣ - ١٩٣١) ، التي سبق لنا أن أشرنا إليها .

وخلاصة القول أن ليس هنالك قانون أبقراطي ، بل جل ما عندنا مجموعات من المؤلفات تختلف مشتملاتها بين مخطوط وآخر ، وبين طبعة وسواها . وينبغي أن يناقش حظ هذه المؤلفات من الصحة على انفراد ، وليس من بينها ماهو موثوق به قطعاً ، بل كثير منها بلاريب منحول ، ودرجة صحة نسبتها إلى مؤلفها تختلف من الصغر إلى ما يقرب من مائة في المائة .

وعندما عرضنا لرجال أمثال هيرودوت ووثوكيديديس ممن لم يخلف أحدهم سوى كتاب واحد ، كان كل ما أوردناه من أحكام عامة منطبقاً ضرورة على ذلك الكتاب بالذات . أما فيما يتعلق بأبقراط فالأمر مختلف كل الاختلاف . إن الكتب المنسوبة إليه أو إلى مدرسته ، حقاً أو باطلا ، كثيرة جداً . وهذه الكتب تختلف من وجوه كثيرة بحيث يصح لزاماً علينا أن نبهها واحداً بعد الآخر ، وليس في وسعنا أن نبهها جميعاً لأن ذلك أمر يطول ، وغير ضروري ، وسنبحث ثلاثين منها فقط ، وفي وسع القارئ الذي يتابعني في تحليلي الموجز أن يكون به لنفسه عن هذا المجموع الأبقراطي فكرة أصح مما قد يتيسر له عن طريق العرض الإجمالي .

ἌΠΑΝΤΑ ΤΑ ΤΟΥ ἹΠΠΟΚΡΑΤΟΥΣ.

OMNIA OPERA HIPPOCRATIS.



Ne quis alius impune, aut Venetiis, aut ulquam lo-
corum hos Hippocratis libros imprimat, &
Clementis VII. Pont. Max. & Sena-
tus Veneti decreto cau-
tum est.

Ar. Franciscus

(الشكل ٧٠) - صفحة عنوان الكتاب في صدر الجزء الأول من الأصل اليوناني لكتاب
Omnia opera Hippocratis وهو يشتمل على النص اليوناني لتسعة وخمسين من المصنفات الأبقراطية
غير مقرونة بالترجمة اللاتينية .

حرره فرانيسكوس اسولانوس Franciscus Asulanus وطبعته مؤسسة ألدوين الزاهرة لصاحبها
الدوس واندرياس اسولانوس Aldo Manuzio-Andrea Torresani of Asola في البندقية ١٥٢٦ .

وتبدأ هذه الطبعة الأنيقة ذات القطع الكبير folio volume برسالة موجهة من كليمان السابع
(جوليو دي مديشي Guilio de' Medici البابا من ١٥٢٣ إلى ١٥٣٤) إلى أبناء اندريا الطورساتي
وورثة الدومانوزيو (١٤٤٩ - ١٥١٥) (نقلا عن نسخة مكتبة كلية هارفرد) .

تاريخ العلم

ἹΠΠΟΚΡΑΤΟΥΣ

ΚΩΟΥ ΙΑΤΡΟΥ ΠΑΛΑΙΟΤΑΤ

ἔσ, πάντων ἄλλων περιφρασίς, βυ
ἐλία ἀπάντα.

HIPPOCRATIS COI MEDICI

VETVSTISSIMI, ET OMNIUM ALIORVM PRIN-
cipis, libri omnes, ad uetustos Cosites summo
studio collati & restaurati.



B A S I L E A E

M D XXXVIII

الشكل (٧) -- صفحة العنوان في صدر الطبعة اليونانية الثانية (على أوراق ذات قطع كبير)
Folio لمصنفات أبقراط بعناية جانوس كورناريوس Janus Cornarius وقد طبعها فروبنوس
Frobenius في بال ١٥٣٨ . ولقد كان الإنسانيون يبال في مزاحمة دائمة مع منافسيهم من أعلام
البنديقية (نقلا عن نسخة مكتبة كلية هارفارد) .

ولا داعي لأن نعلق أهمية كبرى على السياق الذى نسلكه فى مناقشتها ، لأن السياق التاريخي وهو أقرب الأمور إلى طبيعة الأشياء متعذر . فإن بعض هذه المصنفات ، فى الراجح ، يسبق زمن أبقراط مثل كتاب De hebdomadibus (انظر > ١ ص ٤٣٨) و Prorrhetic (Praedicta,) Coan prenotions ومشمتملات « القسم » Oath . وسنلم بثلاثين مصنفاً موزعة بوجه عام على النحو التالى : ١ - ٦ ، المؤلفات الطبية الرئيسية ، ٧ - ١١ ، المؤلفات الجراحية ، ١٢ - ٢٠ ، المباحث والمؤلفات الفلسفية الطبية ، ٢١ - ٢٤ الحكم ، ٢٥ - ٢٩ الواجبات الطبية ، ٣٠ الرسائل .

المؤلفات الطبية الرئيسية^(١٩)

١ - كتاب « المرض المقدس » (الصرع)^(٢٠) : De morbo sacro;

Peri hieres nosu

ليس هذا الكتاب ، على أى وجه ، أشهر المصنفات الأبقراطية ، لكنه من أبرزها فى نظر مؤرخى علم الطب . ونسبته إلى أبقراط فى الراجح صحيحة ، ويرجع تاريخه بيقين إلى العهد الأبقراطى . و « المرض المقدس » هو الصرع (الانهيار العصبى) ، ولكن الكتاب يعالج أيضاً أنواعاً من النوبات العصبية والأمراض العقلية . يبدأ هذا الداء ، على ما يظن ، فى الدماغ ، والسبب المباشر لحدوث النوبة هو احتباس الهواء فى الأوعية الدموية بسبب بلغم يأتى من الرأس . والمظنون أن هذا التعليل مقتبس عن معاصر لأبقراط هو ديوجينيس الأبولونى Diogenes of Applonia . فالدماغ (وليس القلب أو الحجاب الحاجز) هو الذى اعتبر مركزاً للوعى الوجدانى ، وربما يكون هذا مأخوذاً عن الكمايون Alcmaion (القرن السادس ق. م) ، وقد قبله أفلاطون ، ورفضه أرسطو (ورفضه هذا من أسوأ أخطائه) وتبعاً لذلك تطلب زمناً طويلاً لكشفه مرة أخرى . وأعجب ما فى هذا الكتاب رفضه الاسم الذى طالما أطلق على داء الصرع وهو « المرض المقدس » . إذ ليس ثمة ، فيما يدعى أبقراط^(٢١) ، نوعان من

OECONOMIA
HIPPOCRATIS,
ALPHABETI SE-
RIE DISTINCTA.

*IN QVA DICTIONVM APVD HIP-
pocratem omnium, praesertim obscurorum, usus explicatur, &
velut ex amplissimo penu depromitur: ita ut LEXI-
CON HIPPOCRATEVM merito
dici possit.*

ANVTIO FOESIO MEDIOMATRICO
MEDICO, AVTHORE.



FRANCOEVRDI,
Apud Andreae Wecheli heredes,
Claudium Marnium, & Io. Aubrium,
ANNO S. MDLXXVIII.
Cum Priuilegio S. Caesareae Maiestatis.

الشكل ٧٢ - صفحة العنوان في صدر دائرة المعارف والمعجم الأبقراطي . وضعه انيوس فويس من
متز Anuce Foes of Metz (١٥٢٨ - ١٥٩٥) ، وهو آثر خالد من آثار المعارف الطبية اليونانية ،
ولا يزال أداة صالحة لدرس الطب اليوناني (طبع على أوراق ذات قطع كبير ٣٣ سم ، ٧٠٠ ص بحرف
صغير في عمودين ، فرانكفورت ١٥٨٨) . وبالرغم من حجمه هذا فقد طبع ثانية في جنيف
١٦٦٢ (نقل عن نسخة مكتبة كلية هارفارد) .

OEUVRES
COMPLÈTES
D'HIPPOCRATE,

TRADUCTION NOUVELLE

AVEC LE TEXTE GREC EN REGARD,

COLLATIONNÉ SUR LES MANUSCRITS ET TOUTES LES ÉDITIONS;

ACCOMPAGNÉE D'UNE INTRODUCTION,

DE COMMENTAIRES MÉDICAUX, DE VARIANTES ET DE NOTES PHILOLOGIQUES;

Suivie d'une table générale des matières.

PAR É. LITTRÉ.

Τὸς τῶν καλῶν ἀνδρῶν
ὁμιλῆσαι γράμμασι.
GAL

TOME PREMIER
A PARIS,

CHEZ J. B. BAILLIÈRE,
LIBRAIRE DE L'ACADEMIE ROYALE DE MÉDECINE,
RUE DE L'ÉCOLE DE MÉDECINE, 17;
A LONDRES, CHEZ H. BAILLIÈRE, 219 REGENT-STREET

1839.

الشكل ٧٣ - صفحة العنوان في صدر المجلد الأول من طبعة ليثريه اليونانية - الفرنسية للمصنفات
الأبقراطية (عشرة مجلدات ، باريس ١٨٣٩ - ١٨٦١) (نقلا عن نسخة مكتبة كلية هارفارد) .

الأمراض : طبيعي ومقدس . أو إنساني وإلهي ، بل إن جميع الأمراض طبيعية ، وهي جميعها ، على اعتبارها ، إلهية . وها هي ذى عبارته الغريبة بنصها :

« هأنذا أبدأ ببحث المرض المعروف « بالمقدس » . وليس هو ، في رأيي ، أعرق في الألوهية أو القداسة من سواه من الأمراض ، بل له سبب طبيعي . وألوهية أصله المزعومة مردها إلى جهل الناس واستغرابهم لطبائعه الخاصة . وبينما يستمر الناس في الاعتقاد بأصله الإلهي لعجزهم عن إدراك خفاياه ، تراهم يفتنون طابعه الإلهي باستخدام الوسائل المألوفة في معالجته وهي التي تعتمد ، فيما تعتمد ، على وسائل التطهر وأساليب الرقي والعزائم . وإذا كان الذي يوجب اعتباره إلهياً مجرد غرابة أمره ، لم يكن هنالك مرض إلهي واحد بل جملة أمراض . وهأنذا أوضح أن هنالك أمراضاً أخرى لا تقل عن هذا المرض غرابة وهولاً ، ومع ذلك لم يعتبرها أحد مقدسة . مثال ذلك أن الحميات اليومية ، وحميات الثلث والربع ، ليست ، فيما يبدو لي ، أقل قداسة من ذلك المرض ، ولا أبعد منه احتمالاً عن أن تكون بقضاء إلهي . لكن أحداً لم يعجب لأمرها . ونجد بعض الناس في حال من البلبه والشروذ لا نعرف لها سبباً ظاهراً ، ويأتون أموراً مستغربة ، فكثيرون منهم ، فيما أعلم ، يثنون ويصيحون ، وآخرون يشقون ويحتقرون ، وسواهم يثبون ويندفعون إلى الخارج وهم ساهون إلى أن يستعيدوا وعيهم . وعندها يعودون إلى ما كانوا عليه أولاً من العافية والوعي ، لولا ما يعلو محياهم من صفرة ، وما ينتاب أجسامهم من إعياء . ويحدث لهم هذا مرات عديدة لا مرة واحدة . وفي استطاعتنا أن نورد على ذلك أمثلة عديدة مختلفة الأنواع ، ولكن الوقت يضيق بنا عن أن نتحدث عن كل منها على حدة .

« ويبدو لي أن الذين نسبوا في البداية إلى هذا المرض طابعاً قدسياً كانوا أشبه بالسحرة والمطهرين والمشعوذين والدجالين في أيامنا هذه — أولئك الذين يظهرون التي البالغ ويدعون المعرفة الخارقة . وإذا أخذتهم الحيرة في شأن هذا المرض ، وعزّ لديهم العلاج الشافي تسروا بالخزعبلات ووسموه « بالمرض المقدس »

كيلا يفتضح جهلهم المطبق^(٢٢)»

أما العلم بأنسجة الأوعية الدموية فضعيف للغاية . ولئن كانت هنالك ملاحظات إكلينيكية صالحة فإن بيان الصرع غير واف بالغرض . ومع هذا ما أجددنا أن نتسامح في ذلك ، لأننا حتى الآن — على الرغم من كل ما ندعيه من التفوق في أساليب البحث عن وصف موجات الدماغ الكهربائية — (electroencephalography)، لم نظفر بإيضاح « المرض المقدس » ، ولا نحن قادرون بعد على أن نشفي ضحاياها أو نمدمهم بمساعدة مجدية .

قلما ينسى الإنسان انطباعاته الأولى ، وهذه الرسالة هي أول رسالة علمية يونانية قرأتها ، وقد أثرت في روحها الحية تأثيراً عميقاً وأعدتني لأكون مؤرخاً للعلم — قرأت هذا النص مع زملائي في جامعة جنت Chent ، في الطبعة (الجزئية) التي نشرها فيلاموفتزر Wilamowitz في كتابه Griechisches Lesebuch بإرشاد جوزيف بيدز Joseph Bidez وتوجيهه الحكيم^(٢٣) .

٢ — كتاب الإنذار المرضى^(٢٤) : Prognostic; Prognostica sive
praenotiones; Prognosticon.

هذا الكتاب منسوب تقليدياً إلى أبقراط بلا مخالف . وقد وصف فيه نشوء الأمراض الحادة وتطورها لكي يتمكن الطبيب من أن يتكهن عن هذا التطور عند ابتدائه . واستمر هذا الكتاب متداولاً حتى منتصف القرن السابع عشر ، وهو موجود في عدد كبير من المخطوطات والطبعات في لغات كثيرة .

ظهرت طبعات الترجمة اللاتينية لهذا الكتاب في عهد بالغ القدم ، وذلك في جملة الطبقات الست لكتاب Articella (١٤٧٦ إلى ١٥٠٠) ، ثم طبعه على حدة هنري إتين Henri Estienne (باريس ١٥١٦) . ولست واثقاً من أن الطبعة اللاتينية — الألمانية لكتاب Prognostica Ypocratis cum aliis notatis (ميمنجن ١٤٩٦ ، كلييس ٥٢١) ليست هذا النص بالذات .

وقد جاء في الفصل الأول منه :

« أعتقد أن من خير الأمور للطبيب أن يتمرن على التكهن . لأنه إن

اكتشف الشيء : ماضيه وحاضره وآتية ، ثم أعلنه غير مستعين بمرضاه ، واستخدم ذلك في سد الفجوات الباقية فيما يقرره المريض ، كانت ثقة الناس بإدراكه لحالات المرض أشد، فاطمأنوا إليه واستسلموا لمعالجته . ويصبح أوفر نجاحاً في استئناف العلاج إن عرف مقدماً ، من ملاحظة الأعراض الحاضرة، ما الذى سيحدث بعد حين . وغنى عن البيان أن رد العافية إلى كل مريض أمر متعذر . ولو صح ذلك لكان بلاريب خيراً من استطلاع الغيب . والواقع أن الناس يموتون : بعضهم لاشتداد المرض بهم قبل استدعاء الطبيب ، والبعض الآخر على أثر استدعائه - ولا تمتد حياته إلا يوماً أو أكثر - قبل أن يتمكن الطبيب من التذرع بعلمه لمقاومة المرض أياً كان نوعه فينبغي للطبيب والحالة هذه أن يعرف طبائع هذه الأمراض ، وإلى أى مدى تتجاوز قدرة الجسم البشرى على المقاومة . وأن يتعلم كيف يتكهن بها . وبهذه الطريق يتمكن من أن يحرز بحق كل احترام ، وأن يغذو طبيياً ماهراً . واعلم أنه على نسبة طول الوقت الموقوف لمعالجة حالة من الحالات المرضية تكون قدرتك على شفاء أولئك الذين يؤمل شفاؤهم . وفي الوقت نفسه يرتفع عنك اللوم متى علمت وأعلنت مقدماً عن المرضى الذين يخشى موتهم ، وأولئك الذين يرجى امتثالهم للعافية . أما العبارة الأخيرة فيبدو أنها أثبتت معارضة للأطباء الكنديين وهى : « لا تأمف لحذف أسماء بعض الأمراض من بيانى هذا . لأنك إنما تعلم أنواع الأمراض بالأعراض ذاتها في جميع الحالات ، متى بلغت منتهى حدتها في الأوقات التى عينتها .

٣ - كتاب التدبير الصحى فى الأمراض الحادة^(٢٥) Regimen in acute diseases; De diaeta (or De ratione victus in acutis); Peri diaites oxenosematon.

إن صحة نسبة هذا البحث لم تكن يوماً موضعاً للشك . وهو شبه ملحق لكتاب الإنذار المرضى . والأمراض الحادة التى تناولها البحث، والتي تتميز بجمارة عالية هى العلل الصدرية والملاريا المتقطعة . وعلاجها الخاص خفيف للغاية ،

لكنه مقرون بنظام غذائي صارم (كما يبدو ذلك في عنوان الكتاب) . فأبقراط يشير بالاختصار على خبيص الشعير أو نقيعه ، والمنبهات الحارة ، والحمامات ، والتدليك ، وأنواع من الخمر ، وشراب العسل ، وهكذا . . . ولا يشير إلا بالقليل النادر من الأدوية^(٢٦) .

« إنني لأطرى شديد الإطراء ذلك الطيب الذي يظهر تفوقاً ما ، لدى معالجة الأمراض الحادة التي تذهب بحياة الكثرة المطلقة من المصابين . والأمراض الحادة هي تلك التي أطلق عليها القدماء أسماء : ذات الجنب ، وذات الرئة ، والتهاب السحايا ، والحمى الخبيثة ، وما جرى مجراها من ذوات الحرارة التي يغلب فيها الاستمرار . ذلك لأنه إذا لم يكن هنالك وباء كاسح ، وقعت أمراض متفرقة ، ثم ظهرت أمراض حادة فإنها تسبب من الوفيات عدة أضعاف ما تسببه سائر الأمراض الأخرى مجتمعة^(٢٧) » .

إن النص اللاتيني لهذا البحث موجود في طبعات Articella القديمة ، وعددها ستة (قبل سنة ١٤٧٦ حتى ١٥٠٠ ، كلبس ١١٦) . وأول طبعة مستقلة للأصل اليوناني هي التي حققها هالر Haller (باريس ١٥٣٠) . وهنالك طبعات عديدة أخرى أكثرها باللاتينية .

ولقد عرف هذا المؤلف بأسماء أخرى منها : « نقيع الشعير » (De ptisana) نظراً للأهمية المعلقة على نقيع الشعير ، ومنها « تسفيه الأحكام الكنيديية » ، لما في الفصول الثلاثة الأولى من نقد موجه إلى تعاليم الكنيديين .

٤ - كتاب « المقدمات التمهيدية » الثاني^(٢٨) Prorrhetic II; Praedicta II نذكر هذا الكتاب هنا مع أن قدماء النقاد أمثال أروتيانوس وجالينوس لم يعتبروه صحيح النسبة ، وظاهره كله يدل على أنه يعود إلى العهد الأبقراطي الباكر . نذكره لأنه من بعض الوجوه ، صالح للمقابلة بكتاب « التدبير الصحي في الأمراض الحادة » ، وون الجائز أن يطلق عليه عنوان « التدبير الصحي في الأمراض المزمنة » .

ويختلف هذا الكتاب جداً عن كتاب « المقدمات التمهيدية » الأول الذي

هو مجموع مائة وسبعين حكمة طبية . أما « التمهيد الثاني » الذى نحن بصدده فيقسم إلى ثلاثة وأربعين فصلاً بعضها طويل نوعاً . ويشتمل على عدد وافر من الملاحظات الطبية وتصريحين غريبين . فى الفصل الثالث نقرأ : « إن لمس الطبيب لبطن المريض وعروقه يجعله أبعد عن الانخداع منه لو لم يلمسهما » . وهذه ، ولا شك ، إشارة إلى النبضان . والأطباء الأبقراطيين لم يعرفوا كثيراً عن النبض ، وإن لاحظوه (وكيف يمكن أن يكونوا قد غفلوا عن ملاحظته ؟) . وفى الفصل السابع عشر إشارة إلى علقه كانت كامنة فى حلق أحدهم فاعتبرت مسببة للزيف . ولم يستخدم الأطباء الأبقراطيون العلق ، وإن عرفوا الضرر الذى قد ينجم عنه عرضاً . وهذه ملاحظة صادقة فى بلد يكثر فيه هذا الحيوان (٢٩) .

٥ — كتاب الأوبئة الأول والثالث (٣٠) Epidemics I and III: Epidemiorum libri I et III; Epidemion biblia a', g'. إن هذا الكتاب لمن روائع المؤلفات العلمية اليونانية . وإن كان غير محكم الصياغة لأن مؤلفه لم يعن جديداً بتهديب عباراته . وهو جمهرة من « الأنظمة الصحية » ومجموعة خاصة من القصص الإكلينيكية . وتصف هذه « الأنظمة » ملابسات المناخ وأحوال المرض العامة فى مواضع معينة ، وتتعلق ثلاثة منها بجزيرة تاسوس Thasos . تلك التى لا مفر لنا من افتراض أن المؤلف (أبقراط) ؟ كان يعرفها جيداً . أما الحوادث الإكلينيكية فعددها اثنتان وأربعون ، انتهت خمس وعشرون منها بالوفاة .

وتتميز هذه الملاحظات الطبية بطابع علمى ولهجة رصينة تثير الإعجاب وهالك بضعة نماذج منها :

كتاب الأوبئة الأول — النظام الأول: Epidemics I . وهو وصف لوباء التهاب الغدد النكفية (أبو كعيب) . والطريف فى هذا الوصف أنه يعتبر التهاب الحصية أحد المضاعفات التى قد تتخلف عن التهاب الغدد النكفية (التكعيب) . (Orchitis paratidea)

فى جزيرة تاسوس ، أثناء فصل الخريف ، وحوالى الزمن الذى يقرب

فيه الاعتدال الشمسى من غروب الثريا ، يسقط مطر كثير خفيف . متواصل ترافقه رياح تهب من الجنوب . وفي فصل الشتاء تهب رياح من الجنوب ، والرياح الشمالية خفيفة مع شىء من الجفاف ، والشتاء بوجه العموم أشبه بفصل الربيع . والربيع كذلك ذو رياح جنوبية قارسة والمطر ينهمر في دفعات خفيفة . أما الصيف فغائم بوجه الإجمال ، وهو خال من المطر ، رياحه الموسمية قليلة . وخفيفة غير منتظمة .

فالطقس على العموم جنوبى تتخلله موجات من الجفاف . والأمر بالعكس فى أوائل الربيع كما اتضح من « النظام » السابق ، فهو شامى المناخ ، وقليلون من المرضى هم الذين شكوا من حميات حادة . بل كانت حرارتهم خفيفة جداً . بحيث أدت فى حالات قليلة إلى نزيف ، ودون وفاة . وكثيرون منهم أصيبوا بتورم بجانب الأذن أو الأذنين ، ولم يصاحب ذلك ، فى الغالب ارتفاع فى الحرارة ، فلم يكن بهم حاجة إلى ملازمة الفراش . اقترنت بعض الحالات بشىء من الحرارة الخفيفة ، وزال الورم فيها جميعاً دون أن يسبب ضرراً ما . ولم يصاحب هذه الحالات ما يصاحب الأورام عادة من التقيح . وتمتاز هذه الأورام بأنها مسترخية ، كبيرة منتشرة . لا يصحبها التهاب ولا ألم ، واختفت فى جميع الحالات دون أن تترك أثراً . وكان المصابون أحياناً وشباناً ورجالاً فى مقتبل العمر . ومعظمهم من أولئك الذين ترددوا على مدرسة المصارعة ، وزاولوا الألعاب الجمنازية . ولم يصب بذلك من النساء إلا عدد قليل . وأصيب كثير من المرضى بسعال جاف . لا بلغم فيه ، وإنما يخشن الصوت . ويترتب على ذلك أحياناً التهاب مؤلم فى خصية واحدة ، أو فى الاثنتين ، ومصحوب بحرارة فى بعض الأحوال ، وقد يؤدي إلى أوجاع شديدة ، وفيما عدا ذلك ليس ثمة ما يستدعى الإسعاف الطبى .

كتاب الأوبئة الأول - خاتمة النظام الثانى

إن الآلام التى تحدث حول الرأس والعتق ، والثقل المصحوب بالألم قد يقترن بارتفاع درجة الحرارة . والمصابون بالتهاب سحائى (phrenitis) يحدث

لهم تشنج ينفثون معه قيئاً جنزاري اللون ، ويموت بعضهم في الحال . وفي الحمى الحادة والحميات الأخرى ، يصاب بنزيف من الأنف من يعانون أماً في العنق وتقلًا في الصدغين وقصراً في البصر وتوتراً غير مؤلم في منطقتي الشراسيف اليمنى واليسرى ، ومن يشكون من ثقل عام في الرأس ، وحرقة في القلب ، وجيشان في النفس يتقيأون بعد ذلك الصفراء والبلغم . ويغلب على الأولاد أن يصابوا ، في مثل هذه الحالات ، بالتشنج ، في حين تصاب النساء بهذين العرضين وبآلام في الرحم . والمسنون ، الذين أخذت حرارتهم الطبيعية في الجمود ، يصابون بالشلل أو البله أو العمى^(٣١) . ويختتم المؤلف كتاب الأوبئة الأول بإيراد أربع عشرة حالة إكلينيكية ثبتت منها هنا الحالة الثانية في تفصيل :

كان سيلنوس (Silenus) يقيم في الشارع العريض بجوار يوالسيداس (Eualcidas) ، وقد أصيب بحمى على أثر الإجهاد وإدمان الشرب وممارسة الرياضة في غير الوقت الملائم . بدأ يشعر أولاً بألم في الخصرة مصحوب بثقل في الرأس وصلابة في العنق . وفي اليوم الأول ألفت الأمعاء بمقدار وافر من الصفراء الخالية من العناصر الغريبة فاقعة اللون وافرة الزبد ، والبول أسود ، فيه رواسب سوداء ، ويصحب ذلك عطش وجفاف في اللسان ، وسهاد في الليل .

اليوم الثاني : الحمى حادة والغائط أوفر مقداراً وأقل كثافة وفيه مخاط وزبد ، والبول أسود ، والليلة مزعجة يتخللها شرود طفيف .

اليوم الثالث : هياج عام ، انكماش مستطيل في منطقة الشراسيف ، ارتخاء فيما دون ذلك ممتد على الجانبين حتى السرة ، الغائط مائع وقاتم ، البول معتكر وقاتم ، سهاد في الليل ، شرود كثير ، ضحك وغناء ، عجز عن ضبط النفس .

اليوم الرابع : الأعراض نفسها .

اليوم الخامس : الغائط خال من العناصر الغريبة ، صفراوى أملس ودبق كالدهن . البول رقيق شفاف ، فترات من الوعي .

اليوم السادس : عرق طفيف حول الرأس ؛ الأطراف باردة ولونها ضارب إلى الزرقة ، تقلب كثير ؛ الأمعاء لم تفرز شيئاً ، البول محتبس ، الحمى حادة .

اليوم السابع : انقطاع عن الكلام ، الأطراف لا يعود إليها الدفء : البول لا يجرى .

اليوم الثامن : عرق بارد يجلل الرأس ، بقع حمراء يعلوها العرق ، وهي صغيرة مستديرة كأنها حب الصبا ، استمرار ظهورها دون أن تخمد ، تفرز الأمعاء ، على أثر ملين خفيف ، مقداراً كبيراً من غائط صلب رقيق غير مهضوم مصحوب بالألم . البول مؤلم ومهيج ، الأطراف تستعيد شيئاً من الدفء ، النوم متقطع ، غياب عن الوعي ، انقطاع عن الكلام ، البول رقيق شفاف .

اليوم التاسع : الأعراض نفسها .

اليوم العاشر : توقف عن الشرب ، غيبوبة ، نوم متقطع ، الغائط كما هو ، دفعة غزيرة من بول كثيف ترك بعد الاستقرار اسباً طحينياً أبيض . تعود الأطراف فتبرد .

اليوم الحادى عشر : الوفاة .

كانت حركة التنفس في هذه الحال ، من أول الأمر ، بطيئة والتنفس عميقاً ، وكان النبض في منطقة الشرايين متواصلاً . وعمر المريض حوالى عشرين سنة .

كتاب الأوبئة الأول - الحال السادسة .

كان كليناكتيدس (Cleanactides) طريح الفراش فوق معبد هيراكليس Heracles ، ودايمته حرارة غير منتظمة . شعر أولاً بالآلام في الرأس والجانب الأيسر ، وأحس في سائر جسمه بالألم شبيه بالألم الذى يسببه العياء الشديد . ولم تكن وطأة الحرارة بنسبة واحدة . ولا مستمرة على نحو منتظم ، ويصحبها العرق في أوقات دون أخرى . وهذه الوطأة في الغالب على أشدها في أيام المرض الحرجة .

حوالى اليوم الرابع والعشرين : ألم في اليدين ، نوبات متكررة متقاربة من القيء الصفراوى الذى لا يلبث أن يتحول إلى جنزارى ، انتعاش عام .

حوالى اليوم الثلاثين . بدأ رعاف من كلا المنخرين ، واستمر ضعيفاً

متقطعاً حتى بلغت أزمة المرض أوج حدتها. لم يعان المريض في هذه الأثناء عطشاً، ولا شكاً من فقدان الشهية ولا من قلة النوم. البول رقيق وغير خال من لون ما.

حوالى اليوم الأربعين : البول ضارب إلى الحمرة مصحوب براسب وافر أحمر. تحسن في حالة المريض. ثم تبدل في حالة البول فيظهر فيه أحياناً شئ من الرواسب.

اليوم الستون : ترك البول مقداراً كبيراً من الرواسب البيضاء الناعمة، تحسن عام، الحرارة متقطعة، البول يعود رقيقاً لكن لونه مرض.

اليوم السبعون : تعود الحرارة بعد أن توقفت عشرة أيام.

اليوم الثمانون : دور برد، نوبة حمى حادة، عرق غزير، راسب في البول أحمر. ناعم. أزمة خطيرة...

كتاب الأوبئة الأول : الحال الحادية عشرة.

وضعت زوجة دروميادس Dromeades، طفلة، وجرت الأمور في مجراها الطبيعي، ثم أصيبت ببرد وحمى حادة. وبدأت تشعر في اليوم الأول بألم في منطقة الشراسيف وأحست بغثيان في النفس وأخذتها الرجفة واستولى عليها الاضطراب. وفي الأيام التالية امتنع عليها النوم، حركة التنفس بطيئة، والنفس عميق يتوقف فجأة كأنما يعترضه شهيق.

اليوم الثانى منذ بدء البرودة. تقوم الأمعاء بوظيفتها خير قيام، البول كثيف أبيض معتكر، شبيه بالبول الذى حرك بعد أن ترك يستقر ويترسب مدة طويلة، فلم يرسب، امتناع النوم ليلاً.

اليوم الثالث : دور برد حوالى الظهر، حمى حادة، البول كما كان، ألم في منطقة الشراسيف، غثيان، ليلة قلقلة بلا نوم، عرق بارد يجلل الجسم، ثم لم تلبث المريضة أن استعادت الدفء.

اليوم الرابع : تلتف الألم حول الشراسيف، ثقل مؤلم في الرأس، شرود طفيف، رعاف قليل، جفاف في اللسان وعطش، البول شحيح رقيق ذو مادة زيتية، النوم غفلات متباعدة.

اليوم الخامس : عطش ورعاف ، البول كما كان سابقاً ، الأمعاء لم تقذف بشيء ، حوالى منتصف النهار هذيان كثير تلاه على الأثر فترات من الوعي . نهضت ثم عاودها شيء من الشرود . دور يرد طفيف ، استسلمت للرقاد ليلاً عاودها الهذيان .

اليوم السادس : أصابها في الصباح دور برد ، ولكن سرعان ما استرجعت حرارتها ، جلل العرق جسمها . برودة في الأطراف ، نوبة هذيان ، التنفس عميق وبطيء . وبعد فترة أصيبت بتشنج ابتداءً من الرأس ، وجاءت الوفاة على الأثر .

بيّن أن هذا الكتاب لم يكن معداً للنشر وإننا لنشك في أنه وضع أصلاً من أجل أن ينشر . أو من أجل أن يعتمد خارج المدرسة الطبية . من المحتمل أن يكون أبقراط وضعه لاستعماله الخاص ، اللهم إلا أن هذه العناية في التأليف تجاوز هذا الغرض .

أما نظريته في الأمرجة فقد ألمع إليها في كتاب الأوبئة الثالث ، قال :
إن الصفات الجسمية التي تميز المصابين بالسل هي : نعومة الجلد ولونه العدسي الضارب إلى البياض ، والمشوب بالحمرة ، ثم بريق في العينين وتبلد في الحال العامة . يروز في لوحتي الكتفين حتى لكأنهما جانحان . وكذلك شأن النساء في ذلك كله . أما أصحاب الطبع الحزين وذوو المزاج الدمري فقد أصيبوا بحمى شديدة والتهاب سحائي ومتاعب زحارية ، ويضر التعنى من هم في مقتبل العمر من ذوى المزاج اللمفاوى ، ويضر الزحار المزمن والغائط الصلب الدهنى اللزج أرباب المزاج الصمراوى (٣٢) » .

كتب الأوبئة الثاني والرابع إلى السابع : Epidemics II, IV-VII;

Epidemiorum libri II, IV, V, VI VII; Epidemion biblia b', d'-z'.

عمدنا إلى فصل هذه الكتب الخمسة من مؤلف الأوبئة عن الكتابين

السابقين (الأول والثالث) تمشياً مع التقليد القديم ، الذى يرى أنها لاتنعم بالأصالة مثلما ينعمان . فقد نسب القدامى الكتابين الأول والثالث إلى أبقراط نفسه ، فى حين ردوا سائر الكتب الأخرى إلى أبقراطيين آخرين . ونسبت الكتب الثانى والسادس والرابع (؟) غير مرة إلى تسالوس Thessalos بن أبقراط ، وشرح الكتاب السادس جلوكياس التارنتى (Glaucias of Tarentum) (النصف الأول من القرن الأول ق.م.) ، وهو أحد قدماء الأطباء .

وهذه الكتب الخمسة التى نحن بصددھا تشبه الكتابين السابقين فى أمر رئيسى . وهو أنها جميعها مجموعات من الوقائع الإكلينيكية والملاحظات الطبية ، جاءت فى مراتب متفاوتة من حيث تهذيب العبارة وأناقة الإخراج . فالكتابان الأول والثالث أقرب إلى الإتقان ، والخامس والسابع أقل إتقاناً ، والثانى والرابع والسادس أبعد ما يكون عن ذلك ، وإن كان الغرض العام فيها جميعها واحداً .

وخسبها حشد من ملاحظات إكلينيكية متعددة الأنواع . بعضها محكم التعبير (وهو حيث بلغ الذروة شبيه بأوصاف الوقائع الواردة فى الكتابين الأول والثالث) . وبعضها الآخر مدون على عجل . ومنها ما دون بعد مشاهدات قليلة قبل أن يراقب استمرار المرض وتعرف نهايته . ومنها ما هو ركيك التركيب غامض المدلول ، أو مبهم إجمالاً كلياً . وفى وسع الطبيب المعاصر أن يميز بعضها (كما صنع ليتريه) . وبعضها الآخر شديد الخفاء .

وشعورى الشخصى أن هذه الملاحظات وثائق خلفها طبيب أو أكثر ، وكانت مدونة على قطع منشورة من أوراق البردى . وضم بعضها إلى بعض فى مجموعة واحدة منذ زمن مدغل فى القدم . ثم نشرت على هذا النحو - إذا جاز إطلاق « النشر » على هذا الضرب من العمل المشوش . وفى رأى أن ذلك تم فى عهد متأخر نسبياً (فى القرن الثالث مثلاً) . فى الوقت الذى أحرزت فيه المدرسة الأبقراطية شهرة واسعة .

ولقد بلغ من احترام الناشر لهذه الشذرات أن تخرج من إدخال أى تعديل

عليها ، فأقدم على نشرها كما هي تماماً . ولعله أصاب في هذا ، وإن كان قد أخطأ في تركها مشوشة والإبقاء على هفوات فاضحة. مثل إقحام الكتاب السادس بين الخامس والسابع . مع أن التساقق الموضوعي بينهما واضح المعالم .

ومن الخير أن يكون قد قدر لهذه الملاحظات البدائية أن تتحدر إلينا . لأن دراستها تتيح لنا أن نستعيد حياة الأطباء الأبقراطيين وجميع اختباراتهم . فترقبهم وهم يقومون بأعمالهم؛ وتسبح لنا لمحات من تأملاتهم . وإننا لنصادف في كتاب الأوبئة الخامس أمثلة عديدة على إصلاح الخطأ الشخصي ، فنجد الطبيب يقرر أن حكمه السابق بشأن حال مرضية كان خاطئاً ، وأن العلاج الذي عول عليه كان في غير محله (٣٣) .

وفي كتاب الأوبئة الرابع يصف الطبيب في الحادثة السادسة حال إجهاض . ثم يزيد متسائلاً : ترى ، هل قالت المرأة الصدق ؟ لست أدري !

وردت في هذا الصدد أسماء ثلاثة من الأطباء : هيروديكوس (٣٤) Herodicos الذي عيبت عليه أساليبه ، وبيتوكليس (٣٥) Pythocles الذي أعطى مرضاه حليياً مخففاً بكثير من الماء، والمستشار منيسيماخوس (٣٦) Mnesimachos : وهناك إشارات أخرى كثيرة إلى أطباء لم تذكر أسماءهم .

ومظهر المصادفة في تجميع هذه الحوادث يبين بوضوح في تكرارها الزائد ، لا سيما في مجموعات من الكتاب الثاني والرابع والسادس ، والخامس والسابع . ويظهر أن بعض الملاحظات كتبت غير مرة ، ووردت بالتالي مكررة في قطع متعددة من ورق البردى . حتى إذا عمد الناسخ إلى جمع هذه القطع في طومار واحد أثبت كل قطعة حيث وردت ولم ينتبه إلى التكرار ، أو لم يحفل به .

لم يقف التكرار عند هذا المجموع وحده ، بل امتد إلى مؤلفات أبقراطية أخرى كثيرة . وقد أشار ليترية بدقته المعهودة إلى جميع الشذرات التي تطابق ، أو تشابه كثيراً ، فقرات يصادفها القارئ في كتاب «الحكم الطبية» . و«كتاب المقدمات التمهيدية» الأول و«الإنذار المرضى» ، و«الأهوية والأمواه والأماكن» ، و«التدبير الصحي في الأمراض الحادة» ، و«عيادة

الطبيب « . . . إلخ . وهذه الظاهرة مفيدة للغاية ، إذ تدل على أن جانباً من مجموع المؤلفات الأبقراطية كان يسهل الرجوع إليه عندما دون الأطباء هذه الملاحظات الإكلينيكية . أو أن الأطباء الذين دونوها هم الذين وضعوا بعض المؤلفات الأبقراطية الأخرى . وبعبارة أخرى يساعدنا « كتاب الأوبئة » على أن ننسب من صحة قسم وافر من مجموع المصنفات الأبقراطية . وقد أوضح ليتريه هذا الأمر غاية الإيضاح في الهوامش التي أثبتها ، وفي مقدمته لهذا الكتاب عامة أو لكل جزء من أجزائه الخاصة . وقد أورد دايشجرير^(٣٧) Deichgraber حجج ليتريه بتفصيل أوفى ، وأقره في تصنيفه ، وأقدم على تعيين تاريخ لكل مجموعة . وفي رأيه أنه يستطاع تحديد تواريخ المجموعات بحسب السياق التالي : الكتابان الأول والثالث حوالى سنة ٤١٠ . الثاني والرابع والسادس حوالى ٣٩٥ - ٣٩٩ . والخامس والسابع حوالى ٣٦٠ .

ولا حاجة بنا إلى مناقشة هذا التحديد الدقيق . لأنه ينطوى على كثير من الجرأة ، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار سوء التنسيق وعدم تجانس المواد في تلك الكتب . وحسبنا أن نسلم بالنتيجة العامة وهي أن « كتاب الأوبئة » يمثل جملة التجارب الطبية التي توصلت إليها فئة معينة من الأطباء هم أعلام المدرسة الكوسية ، وذلك في مدى قصير نسبياً هو نحو نصف قرن .

وقد ساعد دايشجرير في مهمته أنه باشر عمله بعد ليتريه بما يقرب من قرن . وعاقه أنه كان أقل كفاية منه في مواجهة الواقع . وأنه كان في اختصار لغوياً لا طبياً .

ولكى تنهياً لنا مناقشة معالم الطب الأبقراطي على اختلافها مناقشة أوفى . يجدر بنا أن نعد طبعة جديدة « لكتاب الأوبئة » . منسقة قدر الإمكان على أساس الموضوع . وبما أن النص الذى بين يدينا لا تنسيق فيه . فنحن حقناً أن نغفل ترتيبه الاعتيادى الذى استقر على هذه الصورة . وأن نفترض أن المجموع الأصيل لقطع البردى أعيد إلينا في حالته المشروطة الأولى . ثم نأخذ في إعادة تحريره . هذه المرة . بوعى وتعقل . فنبداً بتبويب الشذرات على خير وجه

ممکن جامعین التقطع التي يتصل بعضها ببعض ، كأن نجتمع كل ما يتصل بالوباء الغريب الذي انتشر في پيرنتوس^(٣٨) Perinthos في فصل الشتاء من سنة لم تذكر على وجه التعيين^(٣٩) : سعال مع أدواء كثيرة أخرى كالسعال المقرون بالذبحة الصدرية أو بالغشاوة « العمى الليلي » أو بشلل بعض الأعضاء ، واتخذ هذا المرض مظاهر مختلفة تبعاً لحرفة المريض وظروف حياته . فالباثعون المنادون والمغنون المتجولون في المدن مثلاً أصيبوا بالذبحة الصدرية ، بينما أصيب العمال الذين يستخدمون أيديهم بألم في أيديهم وهلم جرا . قابل هذا القول بالعبارة الواردة في كتاب الحكم الطبية : « إذا سبق لجانب من الجسم قبل حلول هذا المرض أن أصيب بعلة ما . ففي هذا الجانب يستقر المرض^(٤٠) » . وهذا المنهج الذي اقترحه لإعادة تحرير الكتاب يسوغ اعتماده في أقسام أخرى من مجموع النصوص ، على ألا يتم ذلك على يد لغوى مباه بعلمه ، بل يضطلع به طبيب مجرب أخذ في الوقت نفسه من الثقافة اليونانية بحظ ما . ووعى شؤون النشر العلمي ، مثل ليريه أو بتريكين Petrequin . وينبغي أن نذكر دائماً أن مواجهة الواقع لا تحصل من الكتب . وإنما من ممارسة المهن العلمية .

إن كثيراً من الملاحظات المدونة في « كتاب الأوبئة » فريد في بابه ، ومع هذا تحمل كل دلالة على صحة نسبتها . وفيما يلي واحدة منها . وقد تكون أغربها على الإطلاق :

كانت فاييتوسا Phaitusa ، في أبديرا Abdera . مديرة للشئون المنزلية في بيت بيتياس Pytheas ؛ ورزقت أولاداً . ولكن زوجها هجرها فتوقفت حيضها مدة طويلة ، ثم أصابها ألم في المفاصل . وظهرت في مواضع الألم بقع حمراء . وفي هذه الحال بدأ جسمها يتخذ مظاهر أجسام الرجال : فجلبه الشعر ، ونبت لحيته وخشن صوتها . ولم يعد إليها حيضها بالرغم من كل ما بذل في سبيل ذلك من جهد ، بل أدركتها الوفاة بعد وقت غير طويل . وجرى مثل ذلك لنانو Nanno زوجة جورجيبيوس Gorgippos في تاسوس . واتفقت آراء الأطباء الذين حدثتهم في الموضوع على أن الأمل الوحيد لإرجاع طبيعتها النسائية

إليها إنما هو في أن يعود الحويض إلى مجراه الطبيعي . لكن جهودهم في هذا السبيل ضاعت أيضاً وماتت المرأة على الأثر^(٤١) .
 هذه الحادثة على غرابتها مثال صالح من القصص الطبية المروية في كتاب الأوبئة (وفيه نحو ٥٦٧ قصة^(٤٢)) . وبعضها أطول جداً مما أوردناه ، وكثير منها أقصر جداً حتى لتغدو مجرد قول مأثور . والأسلوب طبي علمي خالص ، خال من الحشو والكلام الهراء .

المؤلفات الجراحية :

إن المؤلفات الجراحية تكاد تكون ، بالنسبة إلى نظام الطب الأبقراطي ، في منزلة المصنفات الطبية التي فرغنا الآن من مناقشتها ، إلا أن طابعها الفني الصارم يجعلها أبعد تناولا عن القارئ العادي ، ولذلك لا نستطيع أن نخصها ببحث مستفيض . وفي وسع القارئ الفطن أن يدرك معالم الرشد في الطب الأبقراطي كما تتجلى في كتاب «التدبير الصحي في الأمراض الحادة» ، والجراح وحده هو الذى يتمكن من استيعاب دقائق الأمور في الجراحة الأبقراطية . أما باقى القراء فلا يسعفهم الشرح ، مهما طال ، في إصدار حكم عادل بشأنها .

والبحوث الجراحية ، مع كل ما تتميز به من تفوق نسبي ، أقل إثارة للإعجاب من بعض البحوث الطبية الأخرى ، فنحن نعلم أن اليونان مارسوا حرفة الجراحة في عهد موغل في القدم (بصرف النظر عن التراث الذى خلفه المصريون في هذا الباب قبل ذلك بقرون عديدة) ، وكشفت قصائد هوميروس عن كثير من المعلومات الجراحية . ومن الممتع جداً أن نقابل هذه القصائد بروايات الفروسية في العصور الوسطى « حيث لا تقع الجروح تحت حصر ، ولا يقف العنف عند حد ، وحيث يكاد يكون الوضوح وكل اهتمام بشئون الجراحة مفقود المعالم^(٤٣) » . أما الإلياذة فقد ورد فيها وصف لنحو من ١٤٧ جرحاً ، وجاء هذا الوصف من الوضوح بحيث يستطيع الجراح أن يميز بينها تمييزاً صحيحاً . وجمع اليونان الكثير من الاختبارات الجراحية ، لا من حوادث

الحروب وحدها ، بل مما وقع لهم أيضاً في أثناء التمارين الجمنازية والألعاب الرياضية . مثال ذلك أن الكتف كثيراً ما كانت تخلع من مكانها في المصارعة ، وعلى الجراح البارع أن يعرف جميع الطرق التي تمكنه من إرجاعها إلى موضعها . ولم تكن المعلومات الجراحية مقتصرة على جبر العظم المكسور وإرجاع المفاصل المخلوعة ، بل اشتملت فوق ذلك ، على أنواع من التضميد ، ووضع الجبائر . وضم المفاصل ، وممارسة التدليك ، واستخدام الدهون . وقام الجراحون الأبقراطيون بكل ما مكنتهم الوسائل المتاحة لهم في ذلك الحين من أن يقوموا به : لكنهم لم يعرفوا — بطبيعة الحال — من وسائل التطهير والتخدير إلا ما هو بدائي للغاية . وذاعت شهرة الجراحين اليونان في الخارج حتى بلغت بلاد فارس قبل نهاية القرن السادس . تشهد على ذلك حكاية ديموكسيديس الكروتوني Democedes of Croton الذي استدعى إلى بلاط دارا Darios (ج ١ - ٤٣٨ص) فالبحوث الأبقراطية تحل إذن من التراث الطبي الضخم في أعلى قمة .

أخرج الجراح الفرنسي جوزيف الينور بتركين Joseph Eleonore Petrequin (١٨١٠ - ١٨٧٦) طبعة يونانية فرنسية شائعة للمؤلفات الجراحية وقف عليها أوقات راحته خلال ثلاثين سنة ، وأسماها جراحة أبقراط *Chirurgie d'Hippocrate* (مجلدان ١٢٢٢ ص ، باريس ، المطبعة الوطنية ١٨٧٧ - ١٨٧٨) ويشتمل المجلدان على تعليقات دقيقة للغاية . والمقدمات الطويلة التي صدرت بها بحوث المجلد الأول مفقودة في المجلد الثاني ، لأنه حال دون تحقيقها موت المؤلف ، وأتم هذا المجلد إميل جوليان Emi Jullien .

٧ - الجروح في الرأس^(٤٤): *De capitis vulneribus; Peri ton en cephalo tromaton* إن هذا البحث لمن أروع البحوث الأبقراطية . يعود تاريخه ، في غالب الظن ، إلى أواخر القرن الخامس ، وينسب إجمالاً إلى أبقراط بالذات . ويشتمل على أوصاف لأنواع الجماجم المختلفة (المتباينة باعتبار تضاريسها العظمية) ، ولنظرية الكسر بالصدمة المعاكسة *contrecoup* . وفيه أيضاً منهج

حديث في كيفية ثقب الجمجمة بالتربنة ، ومناقشة للحالات التي يشار فيها بإجراء هذه الجراحة العظمية ، وتلك التي يفضل فيها الامتناع عن ذلك .

٨ - في الجراحة^(٤٥). De officina medici; Cat' ietreion.

وهو مجموعة ملاحظات تعالج خاصة فن التضميد ، فتوضح كيف ينبغي للجراح أن يتصرف ، وأى الأدوات يستخدم وما إلى ذلك . وجملة هذه الملاحظات أشبه ما تكون بكراسة أعدها أستاذ أو دونها أحد الطلاب . وفيها تكرار كثير ، ولكن التعليم الصالح يستتبع ترويض الطلاب بالتكرار . والشواهد التالية أبلغ في إعطاء فكرة عن الكتاب من كل وصف .

٢ - مستلزمات العمليات الجراحية ، المريض ، الجراح ، مساعدون ، أدوات ، النور ، مكانه وموقعه ، ، أى الأدوات يستخدم ، كيف ومتى ، شخص (المريض ؟) والجهاز ، والزمان والكيفية والمكان .

٣ - ينبغي للجراح ، واقفاً كان أو جالساً ، أن يتخير وضعاً مريحاً بالنسبة إليه وبالنسبة إلى ذلك الجزء من الجسم الذى يجرى فيه العملية ، وبالنسبة إلى النور .

وهناك نوعان من النور : طبيعى وصناعى . ولئن كان الأول خارجاً عن سلطتنا فإن الثانى خاضع لها . واستخدام كل منهما ممكن على أحد وجهين : عمودياً أو منحرفاً . والمنحرف لا يحتاج إليه إلا قليلاً ، والمقدار اللازم منه واضح . أما العمودى فإذا تيسر وكان مفيداً فينبغى أن يواجه الجزء الذى تجرى فيه العملية نحو البقعة المشرقة فيه ، هذا ما عدا الأعضاء التى ينبغى ألا تكشف ، والتي لا يحسن النظر إليها - وبذلك يغدو الموضع الذى تجرى فيه العملية مواجهاً للنور ، ويصبح الجراح مواجهاً للموضع الذى ينجز فيه مهمته ، بحيث لا يقع عليه ظله . لأنه يستطيع بهذا أن يبصر الموضع جيداً دون أن يعرضه للنظر .

٤ - ينبغى ألا تمتد الأظافر إلى أبعد من أطراف الأنامل ، ولا أن تقصر عنها . تمرن على استخدام الأنامل لا سيما السبابة وهى في مقابل الإبهام ، وذلك

في وضع تكرر فيه اليدان متقابلتين ومتجهتين إلى أدنى . أما الشكل الصالح للأصابع : فإن تكون الفرجات بينها واسعة . والإبهام في مقابل السبابة . وهناك خلال ضار بحكم الطبع أو بحكم العادة . عند الذين يجعلون الإبهام تحت سائر الأصابع . مارس جميع العمليات وأنجزها بكل يد على حدة وباليدين . معاً -- لأن الواحدة منهما كالأخرى -- وكل غرضك إحراز القدرة واللباقة والسرعة والرشاقة وعدم الإيلام . ثم الاستعداد الدائم للعمل .

٦ - اطلب إلى الذين يعنون بأمر المريض أن يجعلوا موضع إجراء العملية في الوضع الذي تريد . وأن يمسكوا سائر الجسم بحيث يغدو ثابتاً ويلزموا السكوت ويتقيدوا بالطاعة لرئيسهم .

هذا البحث الموجز أبقراطى لا ريب فيه . وهو قديم نسبياً . وقد ورد اسم تسالوس ابن أبقراط على أنه واضعه . ومهما يكن من صحة نسبه فإن تأثير المعلم العظيم المبدع بارز في تضعيفه .

٩ - ١١ الكسور . والمفاصل ، وأدوات الجبر^(٤٦) De fractis, De articulis

reponendis Vectarius; Peri arthron agmon, Periarthron, Mochlicon.

يمكن أن تعالج هذه البحوث الثلاثة مجتمعة . والأول والثاني وهما ، على القطع ، من وضع طبيب واحد ، كانا في وقت ما مؤلفاً واحداً . والثالث خلاصة للفصول التي تعالج خلع المفاصل في البحثين الأولين . وقد غلب عليها جميعها الطابع الفني ، فغدت من ثم بعيدة المنال بالنسبة إلى القارئ العادي . إن بحثي الكسور والمفاصل ، لم يكونا يوماً موضعاً للشك . وقد جعلهما جالينوس في المجموع الأول من المؤلفات الأبقراطية وهو أوثقها . والغريب أن أحد الشراح القدماء لم ينسبهما إلى أبقراط نفسه، بل إلى جده أبقراط ابن نوسيديكوس^(٤٧) . وهذا يؤيد الرأي القائل بأن المؤلفات الجراحية قديمة العهد . والفضل في وضعها لا يعود إلى أبقراط . وجل ما صنعه أنه أكسبها صبغة قياسية (هذا إن لم يكن جده هو صاحب هذا الفضل) . والفصل بين مؤلفي « الكسور » و « المفاصل » غير واضح . فإن الأول يشتمل على مادة وافرة (نحو

الرابع) عن انخلاع المفاصل . بينما يتضمن الثاني عدة فصول عن الكسور :
 وبما يدعو إلى الغرابة أن كلا الباحثين يشتمل على رسائل بليغة لا نظير لها في
 أحسن المؤلفات الأبقراطية . وربما كان مرد هذا إلى عناية أحد الطلاب
 المتفقهين في اللغة ودقته في النشر .

وفي الفصل التاسع من بحث المفاصل يعالج المؤلف موضوع التديل في
 الحالات الجراحية ، ويعلن عن عزمه على وضع كتاب خاص في ذلك .
 لكن هذا الكتاب لم يؤلف ، ولا نعر على إشارة إليه إلا في الرسالة المذكورة (٤٨).

وقد وضع أبولونيوس الكيتيوني (النصف الأول من القرن الأول ق.م.) شرحاً
 على بحث « المفاصل » (٤٩) أحرز أهمية كبرى لأمر عرض في نقله . ذلك أنه
 وجد منه في فلورنسا (٥٠) مخطوط هونسخة بيزنطية يعود تاريخها إلى القرن التاسع .
 واشتمل على أشكال جراحية (كالذي ورد فيها مثلاً عند الكلام عن طرق
 إرجاع الخلع) تعود إلى عهد أبولونيوس ، بل وإلى زمن أبقراط . ومثل هذه
 المدونات المعززة بالأشكال نادر للغاية ، لأن نقل الأشكال أعسر جداً من
 نسخ النص ، وكثيراً ما أهمل . وبفضل أبولونيوس انتهت إلينا أفكار واضحة
 عن ممارسة القدماء لفن الجراحة (٥١) .

الفلسفة الطبية والرسائل :

١٢ - كتاب الطب القديم. De prisca medicina; Peri archaies ietrices.

هذا البحث قديم العهد ، ولنقل أواخر القرن الخامس ، وليس مؤلفه هو
 مؤلف « كتاب الصرع » (المرض المقدس) و « كتاب التدبير الصحي في
 الأمراض الحادة » ، و « كتاب الأوبئة » . ذلك لأن أسلوبه الأدبي أشد
 أناقة من أساليبها . ومؤلفه ، فيما يرجح ، أحد تلامذة الأستاذ الكبير ممن جمعوا
 بين الطب والسفسطة ، أي الجدل والخطابة ، وشعروا بضرورة الدفاع عن الفن
 الطبي بأسلوب يرضى زملاءه .

يبدأ الكتاب باعتراض على خلط البحث الفلسفي بالطب . وهذا دفاع
 عن « الطب القديم » ، أي الطب العلمي (في مقابل الطب الفلسفي) .
 وكانت هناك حاجة إلى اختبار طويل لمعرفة الصالح وغير الصالح من

المآكل : كيف ينبغي أن تحضر وما المقدار الذى يلزم منها لحفظ الصحة عند الأقوياء أو لزيادة قوة الضعفاء . وما الفن الطبي إلا ضرباً من تهذيب فن التغذية والتأنيق فيه ، ومكتشفات الأطباء الحاذقين لا تختلف كثيراً عن مكتشفات علماء التغذية القدماء (ورأى الخالص أن تعليل الفريقين واحد واكتشافهما واحد^(٥٢)) . وكان عليهم أن يعينوا نوع الغذاء الموافق للمرضى (المرق أو النقيع أو الخبيص rrophemata) والذى يعيد إليهم عافيتهم بدلا من أن يقضى على ما بقى لهم منها) .

وليست الطبائع الأربع (الرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة) ذات أهمية نسبياً ، بل هنالك طبائع وقوى (dynamis) أخرى قد تفوقها أهمية وإن لم تكن أربعاً على التعيين — مثل : القوة ، والملوحة ، والمرارة ، والحلاوة ، والحدة ، والحموضة ، والرطوبة ، وكثير سواها وما لا يحصى مما يتركب منها .

وكان هذا ثورة مدهشة قام بها الإدراك الطبي السليم ضد التصنيفات المبتسرة .

ويدور الجانب الجدللى من هذا البحث حول تسفيهه الافتراضات الواهية^(٥٣) ، لأنه ينبغي أن يقف الطبيب عند القرائن التى فى تناول يده التى يستطيع تحقيقها ، ولا بد له أن يكون رشيداً متواضعاً ، وفى اختصار ذا نزعة علمية .

عرف المؤلف من القدماء الكمايون Alcmaion وامپيدوكليس Empedocles وأناكساجوراس Anaxagoras ، واهتمامه الرئيسى فى^(٥٤) ، على أن تقديره لطب القدماء مضلل نوعاً ، فقد كان هناك طب تجريبي وجراحة ، ولم يكن هنالك ، قبل أبقراط ، إلا القليل من الطب العلمى ، ولم يسلم الأطباء الأول أمثال الكمايون من تأثير الفروض الفيثاجورية . ويظهر أن المؤلف كان مقراً على كبار معاصريه بقدر ما كان سخيلاً إزاء السالفين ، فهاجم الفلاسفة والعقلين غير الناضجين ، ولم يجد شيئاً يقوله عن الدجل الذى كان منتشرأ فى المعابد . ولعله لم يتعمد بحث الخرافات (كما يسكت أطباء اليوم عنها) ، لأنه اعتبرها

خارجة عن الموضوع واعتبر الخوض فيها معيياً . أما إشارته إلى الأطباء الأغبياء « وهم الأكثرية الساحقة (٥٥) » فالمقصود بها غير الأكفاء لا المشعوذون .
وإليك تمهيده الهام :

« إن جميع الذين انتحلوا لأنفسهم . وهم يحاولون الكلام أو الكتابة في الطب ، افتراضاً عدوه أساساً للبحث – كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . أو أى شيء آخر مما قد يجول في خاطرهم ، والذين يحدون من مبدأ السببية المؤدى إلى المرض أو الموت . ويجعلونه واحداً في جميع الحالات . مفترضين أمراً واحداً أو أمرين – إن هؤلاء جميعاً يخطئون في مواطن كثيرة . حتى فيما يقررونه . لكنهم أشد عرضة للّوم لأنهم غافلون عن حقيقة الفن ، ذلك الذى يعتصم به جميع الناس في أخرج الظروف . ويؤدى أجمل الخدمات إلى محترفيه ومطبقيه . حقاً إن من بينهم من هو ضعيف ، ولكن منهم من هو ماهر للغاية . ولو لم يكن في الوجود فن كفن الطب . ولو لم يكن هذا الفن مجالاً للبحث والاستكشاف . لما كانت الحال على ما وصفنا ، بل لكان الجميع سواء في سوء الخبرة وقلة العلم ، ولكانت معالجة المرض اعتبارية من جميع الوجوه . وليس الأمر كذلك . وككل فن نجد بين المشتغلين بالطب الواسعى الاطلاع والحاذقين . كما نجد غيرهم . ومن أجل ذلك تقرر عندى أنه ليس ثمة داع إلى الفروض الواهية . أمثال تلك الأسرار الغامضة . التى يلجأ إلى افتراضها الباحثون عما هو في السماء أو تحت الأرض . وليس للباحث في هذه الأمور من سبيل للجزم بصحة ما يقول أو عدم صحته . لا لنفسه ولا لمستمعيه . إذ ليس هنالك من تجربة يؤدى إجراؤها إلى التثبت من أحد الوجهين

« وقد غدت وسائل الطب كافة منذ القدم في متناول اليد . واكتشفت في آن واحد منهجه ومبادئه . فاستطاع بذلك أن يحقق ، في غضون زمن طويل . كشوفاً كثيرة وجلييلة . واستكمال هذه الكشوف أمر محقق إذا كان الباحث كفتاً يعمد إلى البحث في ضوء ما تم كشفه ويتخذ منه نقطة البدء . وكل من يحاول أن يوجه بحثه جهة أخرى . أو يعتمد منهجاً آخر . معرضاً عن جميع

هذه الوسائل، رافضاً الأخذ بها، ثم يؤكد أنه قد عثر على شيء، كان ولا يزال
صحية الوهم دون نزاع» .

واقراً كذلك الفصل العشرين :

« يؤكد بعض الأطباء والفلاسفة أن أحداً لا يستطيع فهم الطب إن كان
يجهل ما هو الإنسان . ويرون أن من كان خليقاً بمعالجة المرضى معالجة صالحة
ينبغي له أن يعرف ذلك . ولكن هذه معضلة فلسفية ، وتقع في نطاق العلماء
الذين ألقوا في موضوع العلم الطبيعي كما فعل امبيدوكليس : ما هو الإنسان منذ
البدء ، كيف برز إلى الوجود مبدئياً . ومن أى العناصر كان تركيبه أصلاً ؟
والذي أراه ، أولاً ، أن جميع ما ذكره الفلاسفة أو الأطباء ، أو دونوه عن العلم
الطبيعي ، لا يتصل بالطب أكثر منه بالتصوير . وأعتقد أيضاً أن المعرفة
الخالصة بحقائق العلم الطبيعي إنما تستمد من علم الطب لا من مصدر آخر
سواه . وفي استطاعة المرء أن يستوعب هذه المعرفة متى تم له تفهم الطب على
الوجه الصحيح ، وإلا فتحقيق ذلك يكاد يكون مستحيلاً - أعني أن يقف على :
ما هو الإنسان ، وما هي العوامل التي انتهت إلى تكوينه ، ونظير ذلك من دقائق
الأمور . وإذا صح ذلك فإنني أعتقد أنه ينبغي للطبيب الذي يرغب في أن
يقوم بشيء من واجبه ، أن يعلم ، بل أن يبذل غاية الجهد كي يعلم ، ما الإنسان
بالنسبة إلى ألوان الطعام والشراب ، وسائر العادات بصورة إجمالية ، وما أثر
كل منها في الأفراد . وليس يكفي أن يعرف - مثلاً - أن الجبن طعام رديء لأنه
يسبب ألماً لمن أصابته منه تخمة ، بل ينبغي أن يعلم ما هو هذا الألم وما الذي
يسببه . وأى شيء في الجسم أصابه منه ضرر . هنالك كثير من الأطعمة
الأخرى الضارة ، وألوان عديدة من المشروبات الأخرى المؤذية ، وجميعها تؤثر
في الإنسان بطرق مختلفة . لذلك أؤثر أن أضع هذه القضية على النحو التالي :
« إن الخمر غير المخففة بالمزج ، إذا شربت بمقدار كبير تركت تأثيراً معيناً
في الإنسان » . فجميع الذين يدركون ذلك يتحققون أنه ناشئ عن الخمر ،
وأنها سببه . ونعلم ، من ثم ، في أى موضع من جسم الإنسان يغلب أن تترك
الخمر معظم تأثيرها . وكم أود لو تجلت حلوة الحق هذه في سائر الحالات

الأخرى . وبالرجوع إلى مثالي الأول : إن الجبن لا يضر بجميع الناس على السواء ، إذ يستطيع بعضهم أن يملأ جوفه منه دون أن يصاب بضرر ما ، بل إن الذين يوافق الجبن مزاجهم يستمدون منه قوة عجيبة ، في حين يسبب لبعض آخر إزعاجاً شديداً . فالتكوين الإنساني مختلف عند الفريقين . والفارق في هذا هو التكوين الذي لا يلائمه الجبن ، فيثور لذلك وينشط للعمل تحت تأثيره . وأولئك الذين يكثر في أجسامهم مثل هذا العنصر ، ويعظم سلطانه عليهم يتكبدون منه . بطبيعة الحال ، عناء أشد . ولو أن الجبن بالذات ضار بالتكوين الإنساني بلا استثناء لكان ضرره لاحقاً بالجميع على السواء^(٥٦) .

لدينا طبعتان حديثتان إحداهما لـ W.H.S. Jones « الفلسفة والطب في اليونان القديمة » (Philosophy and medicine in ancient Greece) وهي الملحق الثامن من صحيفة تاريخ الطب (100PP.; Bulletin of the History of Medicine (1947) '37, 233 (Isis 37, 233), Baltimore, 1946) وتشتمل على طبعة جديدة للنص وترجمة إنجليزية ، والطبعة الثانية لـ A.J.Festugière « الطب القديم » (L'ancienne medecine (136 pp. Paris : Klincksieck, 1948) مشتملة على نص هايبيرج Heiberg اليوناني وترجمة فرنسية . وقد عني الناشران بتوفير الشروح والتعليقات الكثيرة ، وبتصدير البحوث بالمقدمات المحكمة .

١٣ - كتاب الفن الطبي^(٥٧) De arte, peri technes

وضع هذا البحث القصير الذي يصعد إلى العهد الأبقراطي الباكر ليثبت أن هنالك شيئاً يسمى الفن الطبي . وليقف مدافعاً عن الذين يمارسونه ضد كل من يحاولون الحط من قدره . وربما كان المؤلف من غير المحترفين ، وقد حاول بعض الباحثين أن يدللوا على أنه بروتاجوراس Protagoras أو هيبياس Hippias . ومثل هذه المحاولات الناشئة عن الرغبة في تعيين مؤلف للكتاب المغفل عقيمة، متى كان ما يؤيدها لا يزيد كثيراً عن مجرد الرغبة . والذي نستنتجه من هذا البحث أنه . كان في زمن أبقراط ، كما في عهدنا الحاضر . أناس يشنعون على الأطباء زاعمين أن الشفاء إنما هو من قبيل الحظ ،

وأن المرضى غالباً ما يشفون من غير معونة طبية ، وأن البعض قد فاضت أرواحهم وهم بين يدي الطبيب ، وأن الأطباء طالما امتنعوا عن معالجة بعض الأمراض . أما الاعتراضات الثلاثة الأولى ففيها من الحق ما يكفي لأن يجعلها ذات وقع في النفوس ، وأما الرابع فلا يقول به أحد اليوم ، فالأطباء لم يعودوا يمتنعون عن معالجة بعض المرضى الذين فقدوا الأمل في شفائهم ، وإن كانوا يتمنون أحياناً ألا يدعوهم الواجب إلى معالجتهم .

١٤ - كتاب طبيعة الإنسان^(٥٨) De natura hominis; Peri physios

anthropu وكتاب التدبير الصحي في العافية^(٥٩) De sla lubri victus ratione
Peri diaites hygieines هذان المؤلفان مجموعان في مجلد واحد لأنهما كانا في التاريخ القديم يؤلفان كتاباً واحداً ، وهما مجموعان كذلك في سائر المخطوطات . واقتبس أرسطو نبذة من كتاب « طبيعة الإنسان » مهد لها بقوله « ويذكر بوليبيوس في هذا الصدد » فنسب هذا البحث ، على هذا الأساس ، إلى بوليبيوس صهر أبقراط ، وهي نسبة معقولة^(٦٠) . وقد أيدها مينون Menon تأييداً جزئياً^(٦١) .

وإذا اعتبرنا الكتابين مؤلفاً واحداً فإنهما لا يكونان كلاً جيد التنسيق، بل مجموعاً من شذرات ضم بعضها إلى بعض اعتباطاً ، ومن هنا فإن البحث في هوية المؤلف ، أمر عقيم نوعاً . وقد يكون لهذا المجموع مؤلفون عديدون . وقد يكون مينون على صواب حين نسب الفصل التاسع إلى أرسطو والفصل الثالث إلى بوليبيوس . وصدر كتاب طبيعة الإنسان يذكر القارئ بكتاب الطب القديم ، وهناك نقاط اتصال عديدة بكتب أخرى من مجموع النصوص .

وأهم ما في « طبيعة الإنسان » بحث نظرية الأخلاط . وهو الكتاب الأبقراطي الوحيد الذي يعالج هذه النظرية معالجة جديدة ، في حين أن البحث المخصص لهذا الموضوع لا يخوض فيه . ويعارض المؤلف أولئك الفلاسفة الذين يذهبون إلى أن الكون ناشئ من مادة واحدة ، ثم يتوسعون في هذه النظرية حتى

تشمل علم الطب . ولو صح ذلك ما كان هنالك إلا مرض واحد وعلاج واحد .
والجسم الإنساني مركب من أربعة أخلاط منفصلة . وقيام التوازن بينها هو
شرط الحالة الصحية .

ومع ذلك يغلب بعضها بعضاً على حسب الفصول ، ومن هذه الاعتبارات
القياسية نستخرج قواعد المعالجة الصحية . ويشتمل الفصل الثاني على بيان
مشوش عن الجهاز الدموي (وأقدم الأوصاف اليونانية لهذا الجهاز هي أوصاف
سينسيس القبرصي Syennesis of Cypros وديوجنيس الأبولوني Diogenes of
Apollonia وهو ما نحن بصدده) .

ويقرر كتاب « التدبير الصحي في العافية » قواعد للتغذية والتمارين
الرياضية ، بحسب فصول السنة ومزاج الإنسان وسنه ، والوسائل التي تزيد المرء
هزالاً أو سمنة^(٦٢) ، والظروف التي تستخدم فيها المقيثات والحقن . ويبسط أصول
التدبير الصحي للأطفال والنساء وهواة الرياضة .

لدينا من هذا الكتاب ست « طبعات » قديمة بالنص اللاتيني (كلييس
Klebs ٥١٩ . ٦٤٤ . ٨٢٦) نشر أقدمها في ميلانو ١٤٨١ . وأحدث
طبعة منه بالنص اليوناني هي التي أخرجها أوسكار فيلارت Oskar Villaret
(ص : برلين ١٩١١) .

١٥ - كتاب الأخلاط^(٦٣) . De humoribus Peri chyma قد يكون

هذا الكتاب أشد هذه المصنفات تشويشاً وأدعاها إلى الغرابة والحيرة . وقد قال
ليتره عنه إنه خليق بأن يسمى كتاب الأوبئة الثامن (نشره بعد مجموع الأوبئة
المشتمل على الكتاب الثاني والرابع إلى السابع) . أما جونز فكان أعنف في الحكم
عليه حيث قال : « وبين أنه مسودة في أشد حالات التشويش . ومجرد من كل
مسحة أدبية . وفيه قسط من الغموض والإبهام » . ومع ذلك فهو مسودة أبقرافية
صحيحة النسبة ، وقد سبق لقدماء الشارحين أن عرفوها . والكتاب جمهرة من ملاحظات عنى
بجمعها أحد الأساتذة أو الطلبة . وكل فرض بالنسبة له جائز وإن كان لا يمكن إثباته .
وهو حافل بالألغاز . وأولها عنوانه الخاص . إذ يكاد لا يعالج موضوع
الأخلاط مطلقاً . ولا يعرض لها إلا كتاب أبقراطى واحد ، هو « طبيعة الإنسان » .
وبرغم الغموض الشائع فيه (أو بسببه) تكرر نسخه وطبعه .

١٦ - كتاب الأهوية والأمواه والأماكن^(٦٤) : De aere locis aquis ;

. Peri aeron hydaton topon

صحيح النسبة بلا شك (أى أنه أبقراطى قديم) . وفوق هذا هو من أدهش ما أنتجه النبوغ الأبقراطى (أو قل اليونانى) . لأنه أول بحث فى الأدب العالمى يعالج علم المناخ الطبى (راجع ما ذكرناه عن ذلك فى الفصل السابق) ، وأول بحث فى علم الأجناس البشرية .

يوضح أبقراط فى هذا الكتاب أنه ينبغى للطبيب أن يوجه انتباهه التام إلى المناخ فى كل منطقة من المناطق ، وإلى تقلبات الطقس الناجمة عن تغير الفصول . وعن مدى التعرض للمؤثرات المتباينة ، وطبيعة ما يتيسر لنا من الماء والطعام ، وما إلى ذلك . وينبغى أن ندرس كل مسألة طبية فى جوها الجغرافى والبشرى الخاص . لأن الأمراض تختلف باختلاف الأماكن تبعاً لتباين طبيعة سطح الأرض ، واختلاف المناخ ، وتفاوت الطبيعة الإنسانية . وتأيداً لهذا التعليل

يثبت المؤلف عدداً كبيراً من الأمثلة التى جمعها فى غضون أسفاره . ويعالج القسم الثانى من الكتاب (الفصل الثانى عشر إلى الرابع والعشرين) تأثير المناخ فى الطبع . وهو ضرب من البحث التاريخى من الوجهة الأنثروبولوجية : ما الفرق بين أوربا وآسيا . أو بين الميلينيين والبرابرة ؟ يرجع أبقراط هذه الفروق ، بوجه خاص ، إلى اعتبارات مادية (جغرافية) : وهذا ما فعله معاصره هيرودوت الذى أورد هذا التعليم على لسان قورش Syros ملك الفرس . فجعل بذلك لمؤلفه التاريخى خاتمة من أروع الخواتم .

ومن أروع الفصول فى الأنثروبولوجية الأبقراطية الفصل الثانى والعشرون الذى يعالج موضوع الحصيان السيتين أو الخنأى^(٦٥) . ومع أننا نكاد لا نتوقع أن يكون التعليل الطبيعى الذى يورده المؤلف لهذه الظاهرة الغربية صحيحاً ، فإنه من المدهش جداً أن يكون قد حاول إيراد مثل هذا التعليل . لا سيما إذا تذكرنا أن المناقشة الصريحة لحالات الشذوذ الجنسى فى أغلب الظن . من فتوحات عصرنا الحاضر . ويشهد على شهرة هذا البحث العدد الوافر من مخطوطاته وطبعاته . فهناك أربع طبعات قديمة للنص اللاتينى يعود أقدمها إلى سنة ١٤٨١ (1-2) 826. 2, 644. (Klebs,

أما الطبقات الحديثة لهذا النص فينبغي - أن نشير من بينها - بصورة خاصة - إلى تلك التي أعدها البحائة والوطنى اليونانى ادامانتوس كوراييس (Adamantos Coraes "Coray," 1748-1833) مع ترجمة فرنسية (مجلدان ، باريس ١٨٠٠) . ولهذا الكتاب خمس ترجمات إنجليزية على الأقل وأولها لبيتر لو Peter low (لندن ١٥٩٧) . انظر أيضاً كتاب Lugwig Edelstein, Peri aeron und die Sammlung der Hippokratischen Schriften (196 PP. Berlin, 1931) وكذلك مقال (Isis 21, 341 (1934)) وانظر أيضاً

Arne Barkhuus, "Medical surveys from Hippocrates to the world travelers, Medical geography, geomedicine," *Ciba Symposia* 6, 1986-2020 (1945).

وفى الفصل الثالث عشر شروح إضافية عن هذا البحث لمن شاء التوسع

١٧ - كتاب الغذاء^(٦٦) : De alimento; Peri trophes

يمكن اعتبار هذا الكتاب من مؤلفات الحكم ، وهو مقسم إلى خمسة وخمسين فصلاً ، ثمانية عشر منها لا يزيد أحدها فى النص اليونانى عن سطرين ، وتسعة وعشرون يتراوح الواحد منها بين الثلاثة والخمسة الأسطر ، وثمانية فقط يزيد كل منها على ذلك قليلاً وإن كان لا يبلغ العشرة الأسطر ، وثلاثة وثلاثون لا يبلغ الواحد منها الأربعة الأسطر . وهذا الكتاب منقطع النظير بين مجموع النصوص الأبقراطية لما يمتاز به من الطابع الهيراكلينى . وتاريخه متأخر عن هيراكليتوس ، ويغلب على الظن أنه سابق للقرن الرابع ، ولعله يعود إلى أواخر الخامس .

يحاول المؤلف فى هذا الكتاب أن يشرح عملية التغذية البالغة التعقيد . ومعلوم أن فهم هذا الأمر على الوجه الصحيح متعذر قبل نشأة علم الكيمياء الحديث ، وليس غريباً أن يخفق المؤلف فى هذا ويعتصم بالتكهنات الغامضة . ثم يدلى فى كثير من الفصول بمعنيين متعارضين ، تاركاً الاختيار للقارئ . على أن هنالك أمراً واحداً أحسن إدراكه وهو أن الطعام ينبغى أن يتحول إلى سائل حتى يتمكن الجسم من تمثيله^(٦٧) . وأدرك أيضاً الحتمية البيئية وهى أن الغذاء قوام الحياة (فقوة الطعام تحل محل النار فى نظام هيراكليتوس) . ونعود

فقول : كيف كان يمكن في القرن الخامس قبل الميلاد أن يدرك أى شخص الظاهرة الكيموية العجيبة في تحول الطعام إلى لحم وعظم ، وإلى دم ولبن « كزوائد »^(٦٨) (Pleonasmos) . وليس ثمة طعام نافع إطلاقاً بل بالنسبة إلى شخص معين . وغرض مقرر ، وجميع الأشياء نافعة أو ضارة على نحو نسبي^(٦٩) .

ولننظر في أمثلة أخرى قليلة^(٧٠) (وقد اقتبست أربعة فصول بنصها الكامل) :
 « الغذاء وشكل الغذاء واحد ومتعدد ، واحد باعتبار أن نوعه واحد ، أما شكله فيختلف باختلاف الرطوبة واليبوسة . وللأغذية أشكالها الخاصة ومقاديرها المعينة . وهي صالحة لأشياء معينة . ولعدد محدود من الأمور » .
 وهذا ضرب من الأحاجي التي عاجلها قدماء فلاسفة اليونان : الواحد في مقابل المتعدد . وأنواع الأغذية الكثيرة تؤدي إلى نتيجة واحدة هي النمو العضوي .

وفي النص التالي ما يوضح الغموض الميراثي .
 الغذاء هو ما يغذى ، والغذاء هو الشيء الصالح لأن يغذى ، والغذاء هو ما يوشك أن يغذى . بداية جميع الأمور واحدة ونهايتها جميعاً واحدة ، والنهاية والبداية شيء واحد .
 على أن خير الفصول هو :

« إن النبض وحركة التنفس تابعان للسن ، فاتساقهما وعدم اتساقهما من دلائل المرض والصحة – الصحة أكثر من المرض ، والمرضى أكثر من الصحة – لأن التنفس هو الآخر غذاء » . وقيمة هذا القول لا ترجع فقط إلى أنه ملموس أكثر من كل ما تقدم ، بل لأنه يعتبر أيضاً أقدم إشارة إلى النبض في الأدب اليوناني . ولأنه يعد الهواء غذاء . إن عدم ورود إشارات أخرى إلى حركة النبض البسيطة لمن الظواهر الغريبة في النصوص الأبيقراطية^(٧١) . أما فيما يتعلق بالهواء . فن البدسي أنه لا غنى للحياة عنه ، واعتباره غذاء في ذلك العهد لا يمكن أن يحمل إلا على أنه من باب الحدس أو على سبيل المجاز .

تاريخ العلم

١٨- كتاب استخدام السوائل^(٧٢) Peri hygron Chresios; De liquidorum usu وهو مجموعة ملاحظات تتعلق بالماء العذب والملح ، والخلل والخمر ، واستخدام السوائل الحارة والباردة . ولعله ملخص عن بحث أوسع مفقود . ولم نشر إليه هنا إلا لأنه موجود في مجموع نصوص الطب اليوناني Corpus medicorum graecorum. ١٩ - كتاب التدبير الصحي ، القسم الأول إلى الرابع^(٧٣) . Regimen I-IV De victu (يدعى القسم الرابع في الغالب كتاب الأحلام De insomniis أو De somniis) ، Peri diaites, Peri enyption).

وقد نسب هذا الكتاب إلى هيروديكوس السلمبري ، وأبقراط ، وفيليسيون الالوكري ، وسوام . ويصعد تاريخه ، في الراجح ، إلى العصر الأبقراطي . لكنه - قطعاً - ليس أبقراطياً بالمعنى الصحيح ، لأنه حافل بالأوهام الفلسفية والافتراضات الاعتباطية . ويعثر فيه القارئ على آثار من تعاليم هيراكيتوس ، وأنبادوقليس ، وأناكساجوراس ، والفيشاجورين . وتشتمل الطبقات الحديثة على أربعة أقسام ، للرابع منها عنوان إضافي هو « الأحلام » . وتبدأ بعض الطبقات القديمة بالقسم الثاني . وكان هذا المؤلف مقسماً في عهد جالينوس إلى ثلاثة أقسام ، وكان القسم الرابع مجرد خاتمة للقسم الثالث . وعلى كل ليس ثمة ما يجمع بين الأقسام الأربعة إلا ذلك العنوان الذي قال به المؤلف ، وهو « كشفه » (heurema) ، ويتلخص هذا الكشف في أن العاملين الأساسيين في حفظ الصحة هما الغذاء والتمرين الرياضي ، وينبغي أن يكونا على جانب وافر من التوازن . وإذا طغى أحدهما على الآخر وجب اتخاذ كل الاحتياطات لإعادة حالة التوازن . وهذا يوفر للطبيب منهجاً صالحاً لمعالجة مرضاه .

ويوافق المؤلف على وجود العناصر الأربعة ، وإن كان يحاول أن يجمعها في اثنين : النار والماء - وبذلك يستخلص علم وظائف الأعضاء ، من التباين بين هذين العنصرين . مما يؤدي إلى تغيرات لا نهاية لها . والفكرة العامة غير واضحة . ومحاولات تطبيقها (على علم الأجنة مثلا) فيها كثير من

التكلف والتمويه . وفي القسم الأول يلجأ المؤلف إلى مثل هذه التصورات لبيان ما تتألف منه الأجسام الحية ، وإيضاح فروق السن والجنس . واطهار طبيعة الصحة البدنية والسلامة العقلية . ويعالج في القسم الثاني خصائص البلدان على اختلافها . وأنواع اختلافها . وأنواع الرياح والأغذية . والمشروبات ، وضروب الرياضة . ويصف في الثالث العلامات التي تكشف عن سوء التوازن بين الغذاء والرياضة وتنبئ بهجوم المرض . ويشرح في الرابع كيف يمكن أن تساعد الأحلام في الدلالة على حالات عدم التوازن التي هي في سبيل التكون . ويبحث المؤلف . في الفصل السادس إلى الواحد والثلاثين من القسم الأول ، المسائل الجنينية . فيبين أن الجنين ينشأ من المني الذي هو النفس بالذات ، وهذه « النفس المنوية » مزيج من النار والماء . ومؤلفة من أجزاء (merea) ناشئة من جسد الوالدين كليهما . أما التطور الجنيني اللاحق فشبيه بإخراج قطعة موسيقية بحيث يكون الجنين منها بمثابة آلة العزف . هذه التصورات الموسيقية – الجنينية . كما هو واضح . تعود إلى أصل فيثاجوري ، وقد زاد في غموضها اضطراب النص (٧٤) .

ومن أمتع ما في هذا الكتاب للقارئ الحديث وصف التمارين الرياضية والمقارنة بين أنواعها (العادي منها كالمشي ، والعييف كالسباق والمصارعة) وأساليبها ونتائجها (٧٥) . وكذلك القسم الرابع في موضوع الأحلام . وهو جزيل الفائدة . وقد جاء فيه أن هنالك نوعين من الأحلام : إلهي وهو خاص بمعبري الأحلام . وفسولوجي وهو الذي يستدل به الأطباء على العلة . ومتى تعرض العرافون لتعبير النوع الثاني من الأحلام كان الفشل نصيبهم في غالب الأحيان . « فهم يوصون بأن تتخذ الاحتياطات لمنع الضرر . ولا يرشدون إلى طرق الوقاية ، ويوحون فقط بتقديم الصلوات إلى الآلهة . والصلوة محمودة بلا ريب ، ولكن ينبغي مع التوسل إلى الآلهة أن يساعد الإنسان نفسه (٧٦) » . وبذا تجمع الأقسام الأربعة بين الأفكار الغربية والملاحظات الجيدة ، وتصور ذلك الارتباك الذي بليت به العقول – حتى الجيد منها – عند ما حاولت توضيح الأمور الطبيعية والفسولوجية المعقدة التي كانت في غير أمل بعيدة عن تناولها .

ويبدو الإدراك الأبقراطي السليم هنا وهناك ، على الرغم من طغيان النظريات
المبتسرة .

و « كتاب الأحلام » أول دراسة علمية لموضوع سحر الجماهير في
التاريخ القديم والمتوسط ، بل وقطعاً في كل العصور . ومهما بدت هذه الدراسة
غريبة وغير ملتزمة لرجل العلم الحديث ، فإنها تمثل المحاولة الأولى لتفسير ألغاز
عالم الأحلام تفسيراً معقولاً ، واستخدامها في شفاء الأمراض . إن مؤلف هذا
الكتاب يعد الجهد الأعلى لفرويد Freud .

وبعض الأحلام التي نظر فيها المؤلف ذات صلة بالظواهر الفلكية (فقد
يرى النائم ، فيما يرى ، الشمس والقمر) . ومما يلفت النظر أنه لا يصنف
مثل هذه الأحلام مع الأحلام الإلهية . بل يضمها إلى الفسيولوجية . ومن هذه
الناحية وحدها لا يصح القول (كما فعل ^(٧٧) جونز بأن كتاب (De insomniis)
هو أقدم ما ورد في الأدب القديم « عن الصلة المزعومة بين الأجرام السماوية
ووقائع حياة الأفراد » . وفضلاً عن ذلك فن غير الثابت أن ذلك البحث أقدم
من كتاب أفلاطون المسمى Epinomis ، بل ولا يسبق نشر فيليب الأبويسي
Philip of Opus لهذا الكتاب بعد وفاة صاحبه .

كان (De insomniis) من أقدم ما نشر من كتب أبقراط . وقد طبعت
ترجمته اللاتينية على حدة في روما سنة ١٤٨١ . ثم ألحقت بالنشرات السابقة
لكتاب (Aphorismi) لابن ميمون ، ولكتاب المنصوري للرازي (Klebs, 517,
2-3, 826, 644, 2, 2-3) . ومجدوعها أربع طبعات قديمة تتابعت بين ١٤٨١ و ١٥٠٠
٢٠ - كتاب النسفات ^(٧٨) . De flatibus; Peri physion .

ويصعد إلى العهد الأبقراطي ، ويساعدنا على إدراك العضلات الكبرى التي ساورت
الفكر الطبي في ذلك العصر . ولهذا السبب بالذات بدا لنا أن مراجعة هذا العدد
الوافر من الكتب كلا منها على حدة أمر مفيد للغاية . وعضلات الفكر الطبي
أمر غير مستغرب متى تذكرنا أن العصر كان عصر نشاط عقلي ورغبة ملحة
في الاستطلاع . وكانت الملاحظات الطبية تتجمع في بعض الأماكن الملائمة .

ونهباء الأطباء يحاولون تنظيمها على أساس نظراتهم الفلسفية . على أن أساس تفكيرهم الفلسفي قلما كان متجانساً لأنهم خضعوا في أواخر القرن الخامس لمؤثرات كثيرة متباينة . لذلك عمد الطبيب المفكر . إذ وجد نفسه تجاه مشاكل مستعصية . إلى محاولة حلها من الناحية التي بدا له فيها أمل النجاح أقرب تحقيقاً .

ذهب أناكسيمينيس Anaximenes إلى أن الهواء (pneuma) هو المبدأ الأول . ثم عمد ديوجنيس الأبولوني Diogenes of Apollonia إلى تطبيق ذلك على علم وظائف الأعضاء . وأهمية الهواء ، في الواقع ، لا تحتاج إلى إيضاح . تأمل الريح في جميع ضروبها : نسيم الربيع اللطيف ، هبات الصيف المفاجئة . عواصف الشتاء القارسة والزوابع القاتلة ، وتأمل الهزات الأرضية^(٧٩) . إن حاجة الجسم الإنساني إلى الهواء الطلق لأمر بديهي ، وكذلك خطر الافتقار إليه أو عدم انتظام دورته . وكان في استطاعة الطبيب أن يلاحظ سهولة التنفس عند الأصحاء وعسره عند الأعلاء . وحشرجات الصدر في أولى مراحل الاختناق . وفي استطاعته أيضاً أن يراقب التجشؤ ، وانتفاخ الأحشاء . وقرقرة البطن . وخروج الريح منه . وقد عرف الأوجاع الناجمة عن احتباس الريح فيه . والحق أن الهواء (pneuma) شرط من شروط الحياة ، حتى إذا أطلق المرء نفسه الأخير أدركته الوفاة . ومن يدري فلعل النفس (Anima) ضرب من الهواء ؟

لم يكن مؤلف « كتاب السمات » طبيياً أبيقراطياً ، بل ربما لم يكن طبيياً على الإطلاق . وكان بلا ريب فيلسوفاً سوفسطائياً ، ممن يهتمون أولاً بمقائيق الحياة والعافية . وكتابه نوع من القول الذي يقوم على أن جميع الأمراض ناجمة عن الهواء . وخاصة ذلك الهواء الموجود في الأجسام الحية (Physis) . ولعل بعض البحوث الأبيقراطية الأخرى مثل كتاب « طبيعة الإنسان » وكتاب « انطب القديم » إنما وضعت لنقض آرائه (وما جرى مجراه) .

ومن الخير أن نقارن هنا ما في كتاب De flatibus من آراء في الهواء بما

يشابهها مما جاء في الأدب السنسكريتي القديم؛ وقد حاول ذلك جان فيليوزات^(٨١) Jean Filliozat ، واقتبس وترجم نصوصاً في الموضوع عن كاراكا Caraka ، وبهيلا Bhela : وسوسروتا Susruta . وهي نصوص تقرر نظرية المنود في الهواء ، وتعين الفضائل الأساسية « للرياح » في الطبيعة جملة وفي الأجسام الحية . وبكلمة موجزة تعالج الفكرة العامة التي تباورت في المعاني المختلفة لهذه الألفاظ : الهواء (pneuma) والروح (spiritus) والنفس (anima) ، على أنه من المتعذر إثبات أي اقتباس من السنسكريتية إلى اليونانية أو بالعكس . فالأفكار الرئيسية مشتركة . وكثير مما عداها متباين ، وليس هنالك تطابق حرفي في النصوص . وتعليل هذا التشابه بين التراث اليوناني والتراث الهندي ممكن على أساس انتشار هذه الآراء انتشاراً غير واضح المعالم . ذلك أنه كان بين بلاد الهند وبلاد اليونان اتصالات كثيرة قبل عهد الإسكندر . ولكن تامل ذلك أيضاً بأنه وليد تأمل مستقل في حقائق هي موضوع تجربة ستمرت . فمن الحاجة إلى « الرياح » في الطبيعة وفي الأجسام . وما يتخلف عنها بين حين وآخر من مضايقات ، أوضح من أن تفوتها الملاحظة .

جمع أكثر الطبقات التي ظهرت في القرن السادس عشر لكتاب « النسبات » De flatibus بين الأصل اليوناني والترجمة اللاتينية . وأحدث طبعة للنص اليوناني ، إلى جانب طبقات لويب Loeb ومجموع المصنفات الطبية اليونانية (Corpus medicorum graecorum) . هي طبعة أكسيل نلسون Axel Nelson . وعنوانها Die Hippokratische Schrift Peri physion (Uppsala, 1909) وتشتمل على ترجمتين لاتينيتين وضعتا في عهد النهضة الإيطالية الأولى على يد فرنسيسكو فيلافو (1398 - 1481) Francesco Filelfo والثانية على يد جانوس لسكاريس (1445 - 1535) Janus Lascaris .

مؤلفات الحكم :

في مجموع المصنفات الأبقراطية عدد يمكن أن يضم بعضه إلى بعض ، لأنه مؤلف في شكل حكم موجزة ، وضعت كل مجموعة منها تحت عنوان واحد في

قليل من النظام أو بغير نظام . وقد عرضنا فيما سبق لأحدها وهو « كتاب الغذاء » .

والراجح أن أقدم هذه المؤلفات كتاب « الأقوال الكنيديية » - وهو مفقود ، ويشير عنوانه بالذات إلى أنه مجموعة من الأقوال المأثورة التي اشتملت على خلاصة حكمة الأطباء الكنديين (وفي مجموع المصنفات الأبقراطية عدد من المؤلفات الكنيديية) . لأن مدرستي كوس وكنيدوس متجاورتان (وطبيعي أن توجد بعض الكتب الكنيديية في المكتبة القومية) . وقد يرى البعض أن كتب الحكم والنصائح لا بد أن تكون قديمة ، لأن استخدام الأمثال من ضروب التعبير البدائي . ويكاد يكون ثابتاً أن بعض هذه المجموعات قديم ، ولكن لنحذر التعميم . إن حب الحكم والأمثال شائع عند جميع الشعوب في جميع العصور ، ويروج أحياناً ويكسد أحياناً أخرى دون انقطاع . ويميل جوزز « ٨١ » إلى رد كتب الحكم في مجموع المصنفات الأبقراطية إلى النصف الثاني من القرن الخامس . وذلك بالترتيب التقريبي : كتاب « المقدمات التمهيدية » الأول ، Prorrhetic I ، ٤٤٠ . « الحكم » Aphorisms ٤١٥ « التكهينات القومية » Coan prenotions ٤١٠ . « الغذاء » Nutriment ٤٠٠ « والتسنين » Dentition بعد ذلك (؟) . وسأعرض لها بهذا الترتيب باستثناء كتاب « الغذاء » الذي سبق الكلام عنه . الشعر والأمثال أقدم أبواب الأدب عند الأمم كافة . وتمتاز الأقوال الحكمية بأنها سهلة الحفظ ، والذين يتداولونها يسمون أنفسهم ، دون تكبد أي عناء ، بسمه الحكمة وغزارة العلم . على أن نجاح الحكمة الطبية في القرن الخامس لم ينجم عن الرغبة الشعبية في الأمثال فحسب . بل عن حكم هيراكليتوس وسواه من الفلاسفة ، وعن قصائد بندار Pindar وغيره من شارحي المثل العليا اليونانية . وكان من المغري أن تقتبس أبلغ الأبيات من قصيدة عصماء فتغدو ، لكثرة تداولها ، من باب الحكم . ولا يزال الأمر كذلك حتى هذا اليوم ، فإن كثيرين من الناس يعبرون عن مشاعرهم بضرب الأمثال ، واقتباس آية من الكتاب المقدس ، أو بيت من شعر شكسبير ، وهو أمر سهل للغاية وسار .

(٢١) كتاب المقدمات التمهيدية الأولى^(٨٢) - Prorrhetic I De praedic-

tionibus Prorrheticon a.

وهو مجموع من الحكم الطبية على غير نظام . ويشتمل على ١٧٠ حكمة موجزة، سبع عشرة منها (أى العشر) خاصة بهذا المجموع . أما الأغلبية المطلقة فهي جزء من « التكهنات الكوسية » .

أثارت إحدى هذه الحكم^(٨٣) كثيراً من النقاش وهي . « المخبولون يشربون قليلا . يزعجهم الصوت وتدركهم الرعشة » . وقوله « يشربون قليلا » (brachypotai) هو موضوع النزاع ، وإذا كان المقصود الإشارة إلى داء الكلب فإنه ليس جديداً بل قديماً جداً . ولأرسطو فصل يشير إليه صراحة، وإن كان يشتمى بحكم خاطئ^(٨٤) .

وكتاب « المقدمات التمهيدية » الأول يختلف جداً عن الثانى : وحظ الأخير من البلاغة كحظ الأول من الركافة ، (انظر الفقرة الرابعة) .

(٢٢) كتاب الحكم^(٨٥) Aphorismi sive sententiae; Aphorismoi.

وهو أشهر كتاب فى كل مجموع المصنفات ، وترجع شهرته نوعاً ما إلى حب الناس جميعاً « للحكمة الموجزة » - الحكمة المفرغة فى أقراص صغيرة يسهل ازديادها ، إن صح هذا التعبير . والذي يشهد على شدة رواجه كثرة نسخه المخطوطة الموجودة فى لغات كثيرة^(٨٦) . وتعدد الشروح، وشروح الشرح ، ووفرة الكتب التى نسجت على منواله ، وأشهر هذه « كتاب الفصول فى الطب » لابن ميمون (النصف الثانى من القرن الثانى عشر) الذى كان بدوره طبيعة حقبة جديدة فى تاريخ الطب .

طبع كتاب الحكم لأول مرة (باللاتينية) سنة ١٤٧٦ . وظهرت له منذ ذلك الحين طبعات كثيرة بلغات عديدة . ولقد كان كل طبيب مثقف ، حتى القرن الثامن عشر . يقتنى نسخة منه ، ويقرؤه كأنه كتاب من كتب الصلوات الطبية .

وهذه المجموعة . كما هي بين يدينا . مقسومة إلى سبعة أقسام تشتمل على ٤١٢ حكمة . موزعة بين الأقسام السبعة بغير نظام^(٨٧) . هذا باستثناء ما يعرض للقارئ أحياناً من أقوال متتالية تدور حول موضوع واحد . وتكاد هذه الحكم تغزو كل موضوع طبي إلا الجراحة . على أن بعضها قد ورد في مؤلفات أبقراطية أخرى . مثال ذلك أن ستاً وثمانين منها وردت أيضاً في كتاب التكهنات الكوسية Coan prenotions .

إن كتاباً من هذا النوع ليتحدى التحليل . لذلك كان خير ما نستطيع القيام به أن نثبت منه بعض النماذج .

والحكمة الأولى معروفة ، بوجه العموم ، لافى الأوساط الطبية فحسب ، بل في أوساط المثقفين إجمالاً . ويعرف أكثر الناس مع هذا قسمها الأول فقط ، ويجهلون الثاني الذى هو مستقل عن الأول ويعبر عن الاتجاهات الأساسية في تعليم الطب الأبقراطى : (ولعلهما في الأصل حكمتان مختلفتان التصقت أولاهما بالثانية مع توالى النسخ) ، ونصهما :

« الحياة قصيرة ، والفن طويل ، والفرصة هادية ، والتجربة تخون ، والحكم عسير . ينبغى للطبيب أن يكون مستعداً دائماً ، لا لأن يقوم بواجبه فحسب . بل لأن يؤمن تعاون المريض والمساعدين والخارجيين أيضاً^(٨٨) » .
والحكمة التالية تعالج التدبير الصحى الخاص بأبطال الرياضة ، ولم نثبتها هنا كاملة :

« إن الوضع الأكمل في حياة أبطال الرياضة خوان متى كان في أوجه الأعلى ، لأنه لا يمكن أن يستمر . ولا أن يستقر في مستواه ، ما دام التحول إلى ما هو أفضل أمراً متعذراً ، والتحول الوحيد الممكن إنما هو إلى أسوأ . والخير إذن أن يخفض هذا الوضع الممتاز كيما يتهيأ للجسم أن يباشر مرحلة نمو جديدة . على أن إضعاف الجسم ينبغى ألا يبلغ حد الإفراط ، وإلا كان خطراً . وينبغى أن يوقف به عند حد يتناسب مع تكوين الشخص^(٨٩) » . . .

وها هي ذى حكم أخرى أخذت دون قصد تقريباً :

« المستنون أقدر على الصوم من سواهم ، ويليهما المتوسطون في العمر . أما الأحداث فصبرهم على ذلك عسير ، وأعسر ما يكون الصوم على الأولاد . لا سيما أولئك الذين تزيد حيوياتهم عما هو معتاد . »

« الأجسام غير السليمة يزداد ضررها بازدياد غذائها . من الخير للمصابين بالرمد أن يبتلوا بالإسهال . »

« إن الذين تحدوب ظهورهم قبل المراهقة ، على أثر السعال أو داء الربو . لا يرجى لهم من ذلك شفاء^(٩١) . »

إن مجموعاً كهذا لشيءه ببناء لم تربط حجارته بالأسمت . هذا إلى أن الفوارق بين طبعته وترجماته كثيرة ، ومن السهل أن تدرس في النص حكم جديدة ، وأن يهمل منه ما لم يعجب الناشر .

انظر القسم الأخير من هذا الفصل ، ففيه بسط للطب الأبقراطي في أدب العصور الوسطى .

(٢٣) كتاب التكهات الكوسية^(٩١) ; Coan prenotions

يقسم هذا المؤلف ، مثل كتاب الحكم الطبية ، إلى سبعة أقسام ، ويشتمل على ٦٤٠ حكمة مثورة في غير نظام . ويغرى الكثير منها بالتعليق الطبي . وقد أتى لـ Litré بحوادث طبية من عصره ليثقل بها على ما أشار إليه الطبيب الكوسى :

(٢٤) كتاب التسنين^(٩٢) . De dentitione; Peri odontophyies .

هذا المجموع المؤلف من اثنتين وثلاثين حكمة طبية يتعلق بحالة الأطفال الصحية وعلاجهم لا سيما في طور التسنين . ويمكن أن يقسم إلى قسمين : الأول (١ - ١٧) خاص بالتسنين (odontophyia) ، والثاني (١٨ - ٣٢) يتعلق بتقرح اللوزتين (parishmia) واللهاة والحلق . وغالب الظن أن قسم التسنين مستخرج من مجموع أكبر انتزعه ناشر قصر اهتمامه على طب الأطفال . وإذن هذا القسم أقدم بحث موقوف على هذا الفرع من فروع الطب . ولا يبنى هذا وجود ملاحظات كثيرة تتعلق بطب الأطفال في كتب عديدة أخرى من مجموع المصنفات الأبقراطية .

علم الواجبات الطبية

من الطبيعي أن يجمع في باب واحد عدد من النصوص الخاصة بواجبات الأطباء ، والطريقة اللائقة التي ينبغي أن يتقيدوا بها في معاملة المرضى . ويستدل من محتويات هذه الكتب أن الأطباء أخذوا في تنظيم أنفسهم في هيئة مهنية ذات مسؤوليات معينة وامتيازات خاصة . وليس لدينا إثبات آخر على وجود هيئة من هذا النوع . ولذلك يتعذر علينا أن نعين المدى الذي بلغته من التنظيم . ومن المحتمل أنها كانت نقابة ، أو على الأرجح جماعة ليست ذات صفة قانونية تألفت من كبار الأطباء ومساعدتهم وطلابهم المتدربين . وأقدم هذه النصوص وأهمها إطلاقاً هو يمين أبقراط المشهور .

(٢٥) اليمين (٩٣) . Insiurandum; Horcos.

يراد بها تلك اليمين التي كان الطلاب المتدربون يخلفونها قبل أن يقبلوا كأعضاء في النقابة أو جمعية الأطباء الكوسيين ، ولم يكن . على حسب العبارة الأولى ، مجرد قسم بل كان ميثاقاً (syngraphe) يتعهد به المتدرب أن يعامل أولاد أستاذه كما لو كانوا إخوته ، وأن يشرك أستاذه في رزقه ويخف إلى مساعدته إن دعت الحاجة إلى ذلك . وأن يعلم أولاد أستاذه دون أن يتقاضى منهم رسوماً أو يفرض عليهم قيوداً ، وأن يدل بالإرشادات المفصلة إلى أولاده هو . وأولاد أستاذه . وعدد قليل من الطلاب الآخرين الذين أقسموا اليمين ووقعوا الميثاق . لا إلى أحد سواهم . ومعنى هذا أن المهنة لم تكن منظمة فحسب بل إن استمرار احتكارها كان مضموناً . وهكذا كان التعليم الطبي قائماً على أساس نقابي . ويتعذر علينا تعيين تاريخ هذا القسم . وغالب الظن أنه عرف منذ العصر الذهبي للمدرسة الكوسية .

وفيه نبذة مدهشة للغاية : « أتعهد بالألا أستخدم المبضع حتى ولا على الذين يعانون من الحصاة . بل أفسح المجال للأخصائيين الذين حذقوا هذا العمل » . ورأى بعضهم أن الذي كان محظوراً إنما هو الحصاة لا إخراج

الحصاة بعملية جراحية . وأطباء اليونان ما كانوا يخشون من استخدام النفضة المناسبة . أما الرأي القائل بأن الجراحة كانت محظورة على الأطباء . متاحة لمن هم دونهم من المساعدين . فلا يتناسب مع ما نعرفه عن الجراحة الأبقراطية . ذلك أن هذا التحامل على الجراحة وليد العصور الوسطى لا القديمة . وجرى الناشرون مؤخراً على حذف هذه العبارة من طبعات هذا النص الحديثة .

واليمين هي الوثيقة الأساسية في علم الواجبات الطبية . وشهرتها عظيمة . وكثيراً ما عدت جزءاً جوهرياً من مجموع مصنفات أبقراط . وفوق هذا فالمثل العليا التي عززها كانت مقبولة لدى الكثرة المطلقة من المدارس الطبية في التاريخ اليوناني - العربي - اللاتيني حتى يومنا هذا . وفيما يتعلق بتاريخه . انظر :

W.H.S. Jones, *The doctor's Oath* (61 pp., Cambridge; (1924) (*Isis* 11, 154 (1928); Ludwig Edelstein, *The Hippocratic Oath. Text, translation, and interpretation* (70 pp.; Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1943) (*Isis* 35, 53 (1944).

وبحوث متفرقة في : مجلة ايزبس

Isis 20, 262 (1933-34); 22, 222 (1934-35); 32, 116 (1947-49); 38, 94 (1947-48)

وفيما يتعلق باستمرار الأخذ به مع التعديلات الضرورية حتى يومنا هذا . انظر : (*Isis* 40, 350 (1949) وهناك . حوالى تسع طبعات قديمة من النص اللاتيني : (انظر Klebs) ، وأول طبعة للنص اليوناني ظهرت سنة ١٥٢٤ مع النص الذي أعده ايسوبوس^(٩٤) Aisopos والترجمة اللاتينية التي أخرجها نيكولو بيروني الساسوفراتي (١٤٣٠ - ١٤٨٠) . Niccolo Perotti of Sassoferrato .

(٢٦) كتاب القانون^(٩٥) Lex, Nomos

هذا النص لا يزيد كثيراً عن نص القسم (أقل من صفحتين في الأصل اليوناني) وهو أحدث منه عهداً . وتأثير الرواقين فيه ظاهر . وقد عرفه إيروتيانوس Erotianos وهو أقل واقعية من كتاب « القسم » . وأبعد منه عن النهج العملي . وإن كان أعمق فلسفة . وأبلغ عبارة . ويرى إلى تقرير المقومات التهديبية التي تميز الطبيب الصالح ، ويشير إلى أن النقابة الطبية

تحولت . في الوقت الذي دوّن فيه ، إلى نوع من الأخوة السرية .
 وها نحن أولاء نثبت منه النبذة الأولى والنبتين الأخيرتين :

« الطب أرفع الفنون إطلافاً ، إلا أن جهل الذين يمارسونه ، ورعونة الذين يتصدون عقواً للحكم على ممارسيه ، قضى عليه بأن أصبح الآن أقل الفنون اعتباراً . والسبب الرئيسي لهذا الخطأ ، فيما يبدو لي ، أن الطب هو الفن الوحيد الذي تخضعه حكوماتنا لعقاب ما ، ألهم إلا فقد الشرف . وفقد الشرف لا يجرح من يلصق بهم . وما أشبه هؤلاء الرجال بالمثلين الإضافيين في المآسى . وكما أن هؤلاء مظهر الممثل ولباسه وقناعه دون أن يكونوا ممثلين ، كذلك كثير من الأطباء إنما هم أطباء بالسمعة ، وقليلون منهم أطباء في الواقع »

« هذه هي الشروط التي ينبغي أن تتقيد بها ممارسة فن الطب ، والتي يجب علينا تحصيلها قبل أن نرحل من مدينة إلى أخرى ونحرز الشهرة التي تجعل منا أطباء ، لا بالاسم فقط بل بالفعل أيضاً . وقلة التجربة كنز مرصود وذخر ملعون لمن ابتلى به ، غافلا عنه كان أو واعياً . إنها منافية للثقة والمسرة ، وحاضنة للجبين والطيش . والجبين دليل العجز ، والطيش علامة التجرد من حلية الفن . والواقع أن هنالك أمرين : العلم والرأي ، والأول يقود إلى المعرفة والثاني إلى الجهل » .
 « على أن الأمور الطاهرة تنكشف فقط للقوم الطاهرين . أما المدنسون فالأولى ألا يتعلموها حتى يتم إعدادهم للعلوم الخفية .
 والذي لدينا من هذا الكتاب ثمانى طبعات قديمة من الترجمة اللاتينية (راجع Klebs) .

(٢٧) كتاب الطبيب ^(٩٦) De medico; Peri ietru

لم يذكر القدماء ، أمثال إبيروتيايوس وجالينوس ، هذا الكتاب ، إلا أن بينه وبين مجموع المصنفات صلوات كثيرة ، والفصل الأول منه لا غير يعالج الواجبات الطبية ، فيصف سجية الطبيب الصالح جسداً وروحاً . ويتألف من أربعة عشر فصلاً تشرح أصول الطب العملي : كيف تعد العدة للعمليات الجراحية وتجهز الأدوات وتبياً للوازم ، كيف تضمد الجروح وتعصب ،

كيف يحجم المريض . وهكذا . . . أما الفصل الأخير فمخصص للجراحة العسكرية التي لا تتعلم إلا في ساحة القتال . والبحث في هذا الفصل عملي جداً ، وإن كان أساسه التشريحي ضعيفاً . الأمر الذي يشير إلى عهد أبقراطى متقدم .

(٢٨) كتاب اللياقة الطبية^(٩٧). De decenti habitu; Peri euschemosynes.

إن ركازة اللغة في هذا النص . إلى جانب التكلف في الأسلوب (استخدام الألفاظ الحوشية) . يشير إلى أنه - نسبياً - متأخر العهد . وفوق ذلك هو مشوب بأفكار رواقية . وبعض فصوله (وجملتها ثمانية عشر فصلاً) متكلف وغامض (عن قصد ؟) وجميعها ليس أبقرطياً بالمعنى الصحيح . ومع ذلك كله فالموضوع الذي يعالجه شائق حقاً . يشرح فيه المؤلف كيف ينبغي للطبيب أن يتصرف تصرفاً ينفع المريض ويعود عليه هو بالسمعة الطيبة ، ولا يلبق به أن يكون سوفسطائياً . بل رحيماً ومحباً للحق والحكمة . والطبيب المحب للحكمة شبيه بالآلة^(٩٨) « (retros gar philosophos isotheos) » ويشدد المؤلف في الفصل السادس . المشوب - لسوء الحظ - بالغموض والالتباس . على أهمية العامل الدينى . وهذه النبذة فريدة من نوعها في المجموع كله . فيها تفاصيل عملية كثيرة تتعلق بالملاحظات التي ينبغي إجراؤها في المستوصف أو بين يدي المريض . كأعداد العقاقير . وما إلى ذلك . ويوجب على الطبيب أن يزور المريض لما : وأن يقيم - أحياناً - أحد المتمرنين في مكانه مدة غيابه .

(٢٩) كتاب الوصايا^(٩٩) Praecepta; Parangeliai

هذا الكتاب . فيما يبدو ، متأخر التأليف ، ربما حتى العصر الرومانى . إن كان يصعد إلى ما قبل جالينوس . وهو حافل بالتعابير الغامضة . ويصدمك منه فوراً ضعف الأسلوب والغلو في الادعاء . ويعشى الفصلين الأول والثانى منه طابع أبيقورى .

على أن معظمه (الفصول ٣ - ١٣ من ١٤ فصلاً) يعالج الواجبات

الطبية ، فيتناول اللياقة أو السلوك الطبي ، وتجنب الشعوذة ، ودمدمة الدجالين .
(ولعل الدجالين المتجولين أحكموا فن مخاطبة الجمهور والترويج لبضاعتهم
عند وصولهم إلى قرية ما) . ويكون الفصلان الأول والثاني مدخلا إلى الموضوع
مؤداه أن الفن الطبي ينبغي أن يقوم على أساس الملاحظة لا « الافتراض » . أما
الفصل الأخير فمجموعة من العبارات المفككة ، ولعلها ملاحظات لم يتيسر
للمؤلف أن يستكمل صياغتها .

وقد أثبتنا الفصل السادس من « كتاب الوصايا » هذا بنصه الكامل في
الفصل الثالث عشر .

الرسائل :

(٣٠) الرسائل المنحولة

يشتمل المجلد التاسع من طبعة ليثريه (ص ٣٠٨ - ٤٦٦) على رسائل ،
ووثائق أخرى ، مشكوك في صحتها ، وإن كانت شائقة تلذ للباحث المعنى بشأة
الأسطورة الأبقراطية وتطورها . ويشير بعضها ضمناً إلى أن أبقراط أنقذ أثينا
وبلاد اليونان من وباء الطاعون . ولو كان هذا صحيحاً لعرف عن غير هذا الطريق .
ومن بين كتاب هذه الرسائل الملك العظيم ارتا كسر كس Artaxerxes ، وهستانس
Hystanes ، حاكم هيليسبوننت Hellespont الفارسي ، ومواطنو جزيرة كوس
وأبديرا Abdera ، وتسالوس بن أبقراط . والملك ديمتريوس Demetrios . وهنالك
رسائل مسهبة ، تبادلها أبقراط وديمتريوس تدور حول ما نسب إلى الثاني من خبل
مزعوم .

ومن الجدير بالذكر أن علماء العصر القديم رغبوا في أن يستكملوا حكاية
أعلام الرجال (Opera Omnia) بالرسائل «الموثوقة» (مثل أفلاطون وأرسطو)
وإذ لم تتيسر لهم الوثائق التي يسهل على الناشر الحديث جمعها أجازوا لأنفسهم
أن «يختلقوا» ما افتقروا إليه منها . وعلى كل فإن كتابة رسالة معقولة ، أو معقولة
بالنسبة لهم ، ليس أشنع كثيراً من كتابة « الخطب » ، على ما جرى عليه قدماء

المؤرخين ، وفيهم أمثال ثوكيديديس ممن اشتهروا بالصدق .
 يصعد تاريخ طبع الترجمات اللاتينية لبعض الرسائل إلى سنة ١٤٨٧
 و ١٤٩٢ ((Klebs 337)) مضموماً إليها رسائل ديوجينيس السينوبى Diogenes
 of Sinope مؤسس المذهب الكلبي (حوالي ٤٤٠ - ٣٢٥) .

تحقق القارئ الذى أعانه صبره الواسع على مرافقتى فى تفحص أهم
 المؤلفات الأبيقراطية مما امتازت به محتوياتها من غزارة المادة وفرط التعقيد . وقد
 دون معظمها فى القرن الخامس . وقليل منها بعد ذلك بنحو قرن . أو أكثر .
 ومع ذلك فهى تحتفظ بتقليد من أنبل ما خلفه تاريخ الجنس البشرى .

الآثار الأبيقراطية فى العصور الوسطى :

يمكن أن تقاس عظمة الفرد بمقدار ما يمتد إليه ظله خلال العصور اللاحقة .
 وينبغى ، لكى ندرك عظمة أبيقراط ، أن نستشعر التأثير الذى فرضه على من
 تلاه . وسنحاول أن نسرد الوقائع بترتيبها التاريخى ، وبحكم هذا الترتيب يظهر
 « أبيقراط » فى النصف الثانى من القرن الخامس ، وعلينا أن نستيقن بأن ما تم
 على يده - كائناً من كان أبيقراط - فى ذلك العهد ، لم يكن إلا بدء حكاية
 طويلة . ولو قدر لهذه الحكاية أن تكتب لصح أن يكون عنوانها «حياة أبيقراط
 من القرن الخامس إلى اليوم» ، ولو دونت بشيء من الاستيفاء للمأت كتاباً
 ضخماً . إن عظماء الرجال خالدون حقاً ، وقد يكونون بعد الموت أكثر حياة
 منهم قبل ذلك (١٠٠) .

إن درس الآثار الأبيقراطية أمر فريد فى تعقيده . ذلك لأن المصنفات
 الأبيقراطية لا تؤلف كلا موحداً متماسكاً مثل مؤلفات هيرودوث وثوكيديديس :
 أو الإلياذة والأوديسا . وهذه المصنفات الكثيرة ، الصحيح منها والمنحول ،
 لا تخضع جميعها لقانون صارم كما هى الحال فى الكتاب المقدس . وعلى
 الباحث أن يتدبر خبر كل نبذة ، أو كل فئة من النبذ . لا سيما والباعث
 على الجمع بينها عناية القدماء من أمناء المكتبات ، والنساخ والناشرين ، فضلاً

عن مناهج المدارس الطبية . مثال ذلك أن كتاب الحكم الطبية Aphorismi والإندثار المرضى Prognosticum ، وكتاب التدبير الصحى فى الأمراض الحادة Regimen acutorum (De diaeta in acutis) كثيراً ما جاءت مضمومة فى مجلد واحد، كما حدث فى مدرسة مونبلييه Montpellier سنة ١٣٠٩ و١٣٤٠ (١٠١) .
 وهى نحن أولاء - على سبيل المثال - نرسم الخطط الكبرى لتاريخ كتاب واحد منها ، وهى كتاب الحكم الطبية ، وهى أشهرها على الإطلاق .

عقب جالينوس على نحو سبعة عشر من المصنفات الأبقراطية (١٠٢) بينها كتاب الحكم الطبية . وقد ضم شرح جالينوس إلى المتن الأبقراطى فى هذا الكتاب كما حدث فى كثير سواه ، وعمل على تأييد ما جاء فيه . وآثار جالينوس فى أوائل العصر الوسيط معرفة جيداً ، لحسن الحظ ، ويعود الفضل فى ذلك إلى بحث كتبه أحد كبار لغوى العصور الوسطى هو حنين بن إسحق العبادى (النصف الثانى من القرن التاسع) المسمى باللاتينية يوانيتيوس Joannitius وقد عاش أولاً فى جنديسابور ثم فى بغداد وتوفى سنة ٨٧٧ . وكان نسطورياً ، وطبيباً ومترجماً ، اشتغل بالنقل من اليونانية إلى السريانية وإلى العربية ، وقام هو نفسه بترجمة الكثير من المؤلفات العلمية الخالدة التى وضعها أبقراط وأفلاطون وأرسطو وديوسكوريدس وبطلميوس وجالينوس ، وتولى إدارة معهد للمترجمين درهم فيه تدريباً رائعاً ، أما بحثه الذى أشرت إليه منذ قليل فهو عرض مجمل للترجمة السريانية والعربية لمؤلفات جالينوس ، يقدر فيه قيمة هاتين الترجمتين النسبية ، ولا يتردد فى أن ينتقد بشدة بعض ترجماته الخاصة (١٠٣) .

وإليك ما أورده عن كتاب الحكم الطبية :

شرح أبقراط لكتاب الحكم الطبية (تفسير لكتاب الفصول) . يقسم هذا الكتاب إلى سبعة أقسام (١٠٤) . وقد ترجمه أبوب (إلى السريانية) ترجمة سقيمة . ثم حاول جبريل بن بختيشوع أن ينقح هذه الترجمة فجاءت أسوأ مما كانت . ولهذا قارنتها بالنص اليونانى وصححتها بحيث جعلت منها ترجمة (سريانية) جديدة ، وضممت إليها نص ألفاظ أبقراط نفسها . وطلب إلى أحمد بن محمد المدبر أن أترجم

له هذا الكتاب . فترجمت قسماً منه إلى العربية . ثم أشار على ألا يبدأ ترجمة قسم آخر قبل أن أقرأ عليه القسم الذي تمت ترجمته . إلا أن أموراً أخرى شغلته فحال ذلك دون استمراري في الترجمة . ولما كان محمد بن موسى يوالى فحص كل قسم من الأقسام . فقد رجاني أن أستمّر في عملي . وهكذا أنجزت ترجمة الكتاب كله (١٠٥) .

ولا يشير حينئذ إلى ترجمة أخرى لهذا الكتاب وضعها سرجيوس الراسعيني « الرأس عيني » Sergios of Resaina (النصف الأول من القرن السادس) وهو من أقدم وأعظم المترجمين الذين اشتغلوا بالنقل من اليونانية إلى السريانية ، وقد درس في الإسكندرية . ثم قضى نحبه في القسطنطينية سنة ٣٤٦ . ولم يكن نسطورياً كحنين . بل يعقوبياً من القائلين بالطبيعة الواحدة (١٠٦) . ولعل الذي ترجمه سرجيوس هو كتاب الحكم الطبية (لاشرح جالينوس له) ، لكن ذلك غير ثابت (١٠٧) .

وما يدعو إلى الاستغراب أني لم أقف على بادرة اهتمام بهذا الكتاب طيلة المدة بين وفاة حنين سنة ٨٧٧ وحوالي سنة ١٠٢٥ . وهي حقبة تقارب قرناً ونصفاً ، وفي منتصف القرن الحادي عشر ظهر له شرحان على الأقل . وضع أحدهما على بن رضوان المصري (النصف الأول من القرن الحادي عشر) . وأخرج الثاني عبد الرحمن بن علي بن أبي صادق الفارسي (١٠٨) . وقد توفي كلاهما في حدود سنة ١٠٦٧ .

وبعد ذلك بقرن وضع يوسف بن حاسداي الإسباني Yusuf Ibn Hasdai (النصف الأول من القرن الثاني عشر) شرحاً عربياً آخر أسماه « شرح الفصول » . وتكاثر بعد ذلك الترجمات والشروح حتى لنجد من المناسب أن نبحث أمرها كل نصف قرن .

التصف الثاني من القرن الثاني عشر . ومن أبرز من فيه إسباني آخر هو اليهودي ابن ميمون Maimonides . وأهم مؤلفاته الطبية وأشهرها مجموعة أخرى من الحكم الطبية عرفت « بفصول موسى » تكاد تكون مستمدة من جالينوس وحده (١٠٩) . أما شرحه لحكم أبقراط الطبية فكتاب آخر أقل شهرة من ذلك . ومع أن « فصول

موسى « مستمدة من جالينوس فالمرجح أنه يشتمل على ملاحظات متفرقة تتصل مباشرة أو بالواسطة بحكم أبقراط .

وقد قضى ابن حاسداى وابن ميمون كلاهما الشطر الأكل من حياتهما فى مصر لا فى إسبانيا . وهناك إسباني ثالث ، قطلانى على التحديد ، وهو يوسف بن مائر بن زبارة Joseph ben Meir ibn Zabara (النصف الثانى من القرن الثانى عشر) حصل علومه فى نربونه . وأقام على الأغلب فى مسقط رأسه برشلونه ، ولعله مؤلف تلك الرسالة التهكمية لكتاب الحكم التى جاءت بالعبرية تحت عنوان : مومرى هاروفائيم Momeriha-rofe'im

وفى هذه الأثناء قام بورجونديو البيزى Burgundio of Pisa (النصف الثانى من القرن الثانى عشر) بترجمة كتاب الحكم الطبية من اليونانية إلى اللاتينية رأساً ، ثم عمده موروس السالرنى Maurus of Salerno عالم التشريح (النصف الثانى من القرن الثانى عشر) إلى وضع شرح له باللاتينية . ولما كان موروس قد توفى بعد بورجونديو بنحو عشرين سنة (١٢١٤ فى مقابل ١٩١٣) ، فمن المحتمل أن يكون قد اعتمد ترجمة بورجونديو بدلا من الترجمات السابقة التى نقلت عن العربية . على أن ذلك لا يتضح إلا بدرس أعمق مما تيسر لى حتى (١١٠) الآن .

النصف الأول من القرن الثالث عشر: إن ملاحظتانى على إنتاج النصف الأول من هذا القرن محصورة فيما وضع بالعربية فى مدينة دمشق . أو على الأقل . فيما وضعه أطباء عاشوا فى هذه المدينة .

لدينا ثلاثة شروح عربية لكتاب الحكم الطبية ، وضع اثنين منها طبيبان مسلمان هما ابن الدخوار المتوفى فى دمشق سنة ١٢٣٠ (١١١) . وابن اللبوى الحلبي (النصف الأول من القرن الثالث عشر) الذى حصل علومه فى دمشق وتوفى بعد سنة ١٢٦٧ . ووضع الثالث طبيب سامرى هو صدقة ابن مناجا الدمشقى (النصف الأول من القرن الثالث عشر) . وقد جعل عنوان كتابه « شرح فصول أبقراط » .

النصف الثاني من القرن الثالث عشر: وفي النصف الثاني من هذا القرن لفت كتاب الحكم هذا أنظار كل طبيب عاش غربى بلاد الهند ونوقشت الحكم بالعربية والعبرية واللاتينية . وكتب الشروح العربية طبيبان شريكان الأول مسيحي اسمه أبو الفرج ومعروف باسم برهبرايوس Barhebraeus^(١١٢) (النصف الثاني من القرن الثالث عشر) ، والثاني مسلم هو ابن النفيس (النصف الثاني من القرن الثالث عشر) .

ووضع الشروح اللاتينية برتغالى هو بطرس الإسبانى Peter of Spain من لشبونة (النصف الثاني من القرن الثالث عشر) الذى توفى تحت اسم البابا حنا الحادى والعشرين Pope John XXI. فى سنة ١٢٧٧ ، وإيطالى هو تاديو الديروتى الفلورنسى Taddeo Alderotti of Florence. (النصف الثاني من القرن الثالث عشر) الذى عمر حتى سنة ١٣٠٣ .

ولكتاب الحكيم خمس ترجمات عبرية^(١١٣) على الأقل ، وأروعها هى تلك التى أممها شمطوب بن إسحق الطرطوشى Shem-tob ben Isaac of Tortosa (النصف الثاني من القرن الثالث عشر) فى تراسكون سنة ١٢٦٧ ، وهذا يعطينا مثالا صالحاً على انتشار الأثر الأدبى وتنقله . فنص شمطوب العبرى يشتمل على شروح لبلاديوس Palladios الطبيب السوفسطائى (النصف الأول من القرن الخامس) وهى شروح غير معروفة فى الأصل اليونانى . . أما موسى بن طيبون المرسيلى (النصف الثاني من القرن الثالث عشر) Moses ibn Tibbon of Marseille وهو من أشهر تراجمة العصر الوسيط ، فقد ترجم شرح ابن ميمون من العربية إلى العبرية فى سنة ١٢٥٧ أو ١٢٦٧ . وترجم ناتان هاماتى السنتى Nathan ha-me'a ti of Cento (النصف الثاني من القرن الثالث عشر) الذى ازدهر فى روما حوالى ١٢٧٩ – ١٢٨٣ كتاب الحكم من العربية إلى العبرية مع شرح جالينوس .

النصف الأول من القرن الرابع عشر: وآخر الشروح العربية التى وصل إليها علمى تصعد إلى هذا العصر . ونحن مدينون بذلك إلى طبيبين تركيين

— على ما في ذلك من الغرابة — هما عبد الله ابن عبد العزيز السيواسي (النصف الأول من القرن الرابع عشر) وأحمد بن محمد الكيلاني (النصف الأول من القرن الرابع عشر) . فشرح عبد الله الذي يصعد إلى أول هذا القرن عنوانه : « عمدة الفحول في شرح الفصول » . وأما شرح أحمد فقد وضع بعد وضع بعد ذلك بقليل . إذ أهدى إلى جاني بك محمود أمير العشيرة الزرقاء Blue Horde في غربي القبجاني بين ١٣٤٠ — ١٣٥٧ .

وازداد إخراج الطبوعات والشروح اللاتينية . لكتاب الحكم بازياد الحاجة إليه في المدارس الطبية ، لاسيما أهم هذه المدارس في ذلك العهد وهي مدرسة مونبلييه في أرجون . وكان أحد الكتب التي لا بد لطلاب الطب أن يستوعبوا مادتها^(١١٤) . ولذلك وصلت إلينا شروح لاتينية عديدة له وضع أحدها برثولوميو البروجي Bartholomew of Bruges (النصف الأول من القرن الرابع عشر) الذي تخرج في مونبلييه بشهادة M.D. . قبل سنة ١٣١٥ ، ووضع شرحاً آخر برنجر التومباوى Berenger of Thumba (النصف الأول من القرن الرابع عشر) الذي كان في مونبلييه سنة ١٣٣٢ ، وكذلك جيرالد السولي Gerald de Solo (النصف الأول من القرن الرابع عشر) الذي وضع شرحاً ثالثاً (فيما يظن) وكان أستاذاً هناك . وتوفي حوالي سنة ١٣٦٠ .

وكانت مدرسة بولونيا Bologna تداني في أهميتها منافستها الأرجونية ، ولدينا شرحان وضعهما أستاذان من أساتذتها هما نيكولو برتوكشيو Niccolo Bertuccio (النصف الأول من القرن الرابع عشر) والبرتو الزنكارى Alberto de Zancari (النصف الأول من القرن الرابع عشر) . وقد كان شرح البرتو بمثابة نشرة جديدة ، إذ جاءت فيها الحكم : لأول مرة . منسقة تنسيقاً منطقياً :

Anforismi Ypocratis per ordinem collecti.

النصف الثاني من القرن الرابع عشر : يبدو أن نشاط الشراح اليهود أخذ في الخمود في هذه الفترة ، شأن منافسيهم العرب ، حتى إنه ليتعذر على أن أشير إلى أكثر من شارح يهودى واحد هو إبراهيم كابرث القطلاني Abraham Cabret وإرضاء لحب الاستطلاع نشرهنا إلى خلاصة «منطق أرسطو» Aristotelian Organon .

« منحة جودا » الذى أفرغه الفيلسوف اليهودى والعالم الرياضى اليونانى يوسف بن موسى الكلتى Joseph ben Moses ha-Kilti (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) فى قالب حكمى ، فكان بصفة جازمة تقريباً - تقليداً متعمداً أو غير متعمد - لكتاب أبقراط ، وازدهر يوسف هذا فى أواخر القرن الرابع عشر أو أوائل الخامس عشر .

ووضع مارتن دى سانت جيلس Martin de Saint Gilles (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) الذى ظهر فى أفينيون Avignon سنة ١٣٦٢ ترجمة فرنسية لكتاب الحكم الطبية مذيلا بشرح جالينوس^(١١٥) . وهذه الترجمة تفتح أمامنا تقليداً أو دوراً جديداً يدعونا لأن نستكشف جميع لغات أوروبا الإقليمية التى نقل إليها كتاب الحكم فيما تقدم أو تأخر من الزمان ، إلا أن هذا يبعد بنا عن نطاق بحثنا . لأن شيئاً من هذا النشر الاقليمى لا يدخل فى حساب مؤرخ العلم العام ، وإن كان مما ترغّب فيه فئة معينة رغبة شديدة . مثال ذلك أن حكاية الترجمات البولونية إنما تعنى طلاب العلم والأدب البولونى . أما الطبقة المثقفة فى أوروبا الغربية فلم تكن بحاجة إلى الترجمات الإقليمية بل نبذتها ، وكان النص اليونانى مفضلاً لديها وبقي كذلك قروناً عديدة .

ولقد وضع مارسيجليو السانكتا صوفى Marsiglio of Sancta Sophia (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) الأستاذ فى جامعة بادوا ، كتاباً هو « أسئلة حول كتاب الحكم » Quaestiones in aphorismos طبع فى بادوا سنة ١٤٨٥ وأعيد طبعه عدة مرات بعد ذلك^(١١٦) . وتوفى مارسيجليو هذا حوالى سنة ١٤٠٥ . وهنا نصل إلى القرن الخامس عشر الذى لم يتسن لى أن أستوفى دراسته . على أن ذلك لا يمنع من الإشارة إلى شرحين ظهرا فى أوائل هذا القرن ، الأول شرح جياكومودللاطورى Giacomo della Torre^(١١٧) والثانى شرح أوجوبينزى Ugo Benzi ، وكلاهما من أبناء القرن الرابع عشر . وكان لشرحيهما تأثير بالغ . وأعيد طبعهما مراراً عديدة .

إن شرح جياكومودللاطورى والمعروف أيضاً بـ يعقوب الفورلى Jacopo da Forti

أما الطبقات المتأخرة التي ظهرت في لغات كثيرة فلا تقع تحت حصر .
وفي فهرس ليريه (١٢١) جداول طويلة جداً تضم أسماءها وإن كانت غير كاملة .
وكذلك في فهرس المتحف البريطاني والمكتبة الأهلية في باريس .

ورويتنا لأخبار كتاب الحكم الطبية هي أيضاً ناقصة جداً ، وذلك لأسباب
كثيرة ، وأنها أننا لم نتمكن من أن نتحدث إلا عن شراح أبقراط الذين عرفنا
يقيناً أنهم ترجموا حكم أبقراط أو شرحوها ، وعليه فالترجمات والشروح التي
ورد ذكرها ينبغي أن تعتبر نماذج من مجموعة كبيرة ليس إلا . وعامل آخر
أعمق من عوامل الخطأ . هو أن المفسرين المغمورين الذين لم يعتمدوا الشرح كانوا
في الغالب : أكثر عدداً من الشراح المعروفين الذين تجردوا لهذا العمل .
وبعبارة أخرى ماعد الكثير من الشروح وشروح الشروح ، أقرب إلى الأصل من
الكتب التي اعتبرت مؤلفات مستقلة . وهذا يصدق في جميع العصور . فإن
مخلفات فرد لا يمكن أن تستخرج من الكتب التي وضعت خصيصاً لبحثه ،
حتى ولا من كتب المؤلفين الذين استندوا إلى مقتبسات منه . ولا يحرص
المنتحلون وحدهم . بل أصحاب العقول المحدودة أيضاً بوجه عام ، على إخفاء
مصادر علمهم ، شأنهم في ذلك شأن نهر النيل في منابعه ، وكلما كثرت
سرقاتهم قل ميلهم إلى الاعتراف بما هم مدينون به لغيرهم .

إن بحثاً شبيهاً بهذا خليف بأن يكتب حول تاريخ كتب أبقراط الأخرى ،
بل وحول تاريخ أى كتاب علمي قديم . وقد يتاح للباحث أن يكشف فيما
بينها فروقاً كثيرة في مدى الشهرة وسعة الانتشار . كان « كتاب الحكم » من
أشهر المؤلفات الأبقراطية ، أما المؤلفات الأخرى ، التي ضاعت قديماً أو
أهملت ، فهي على عكس ذلك ، وطابع القصة في كل منها واحد على ما بين
أسماء أبطالها من اختلاف شديد .

وقد التقت في تاريخ هذه المؤلفات عناصر متنوعة تعود إلى اعتبارات
عنصرية وجنسية ودينية مختلفة . أما سبيلها اللغوي الرئيسي فكان اللغات الإقليمية :
اليونانية ، فالسريانية ، فالعربية ، فاللاتينية فالعبرية ، وأما سبيلها الديني فكان
الوثنية فالإسلام . فالمسيحية ، فاليهودية .

تعليقات

- (١) إميل ليتريه Emile Littré (١٨٠١ - ١٨٨١) : *Oeuvres complètes d'Hippocrate* : « مجموع مؤلفات أبقراط » (١٠ مجلدات ، باريس ١٨٣٨ - ١٨٦١) ، انظر ليون جيتيه Leon Guinet : « إميل ليتريه » في مجلة ايزيس Isis المجلد الثامن ص ٧٧ - ١٠٢ (١٩٢٦) مع رسم له : وعلى الصفحة ٨٧ جدول بما يشتمل عليه كل مجلد من مجلدات طبعة ليتريه .
- (٢) نشر جونز (Jones) المجلدين الأول والثاني (١٩٢٣) (انظر مجلة ايزيس Isis المجلد السادس ص ٤٧ (١٩٢٣ - ١٩٢٤) والمجلد الرابع (١٩٣١) . ونشر ويتنجتون Withington المصنفات الجراحية في المجلد الثالث (١٩٢٧) . انظر (مجلة ايزيس Isis ، المجلد الحادي عشر ص ٤٠٦ (١٩٢٨) .
- (٣) معجم يوناني انجليزي . تأليف هنري جورج لدل Henry George Liddell (١٨١١ - ١٨٩٨) ؛ وروبرت سكوت Robert Scott (١٨١١ - ١٨٨٧) . وهناك طبعة جديدة منقحة بإشراف السير هنري ستوارت جونز Henry Stuart Jones 2160 pp.; Oxford: Clarendon Press, 1925-1940. ولأغراض معجمية، عمد ويتنجتون إلى قراءة كل ما بقى من أدب اليونان الطبي ؟ انظر مجلة ايزيس Isis ، المجلد الثامن ص ٢٠٠ - ٢٠٢ (١٩٢٦) .
- (٤) هذا بخلاف النص الأدبي الخالص الذي يقدر حق قدره ويترك على حاله نثراً كان أم شعراً .
- (٥) قابل هذا باستخدام شعراء الإسبان ، في العصر الوسيط ، للهجة الغاليسية - البرتغالية المقدمة (Introduction) المجلد الثالث ، ص ٣٣٧ ، ٣٤٤) ، وكذلك باستخدام أطباء الفرنسيين ، في القرن السابع عشر ، اللغة اللاتينية ، وورود الألفاظ الإنجليزية - النورماندية في لغة القانون حتى يومنا هذا .
- (٦) يقول و . ه . س . جونز W.H.S. Jones في كتاب أبقراط Hippocrates (مكتبة لويب للآداب القديمة) ، المجلد الثاني ، ص ٥٤ من المقدمة « لا مطمع لنا في إعادة النص على صورة خير من صورته الجيدة ، في عهد جالينوس ، وحتى هذا غير ميسور أحياناً . فن العيب إذن أن نحاول إعادة النص إلى اللهجة الخاصة التي كتبها المؤلفون . والراجح أنهم لم يكتبوا جميعاً بلغة أيونية واحدة لأن الأيونية ، فيما يتعلق بالطب والعلم إجمالاً ، كانت لغة أدبية لا هجة تخاطب . ومن الغلو في العيب أن نزع أننا نعرف اليوم مثلاً كيف كتب المؤلف هذه اللفظة : tois أم toisi أم toisin .
- (٧) تانجرا Tanagra موضع بويوتيا Boeotia اشتهر بنشاط الأعمال والديكة المقاتلة ، والنماثيل الفخارية الصغيرة أيضاً التي اكتشفت أثناء الحفريات التي أجريت في مقابرها سنة ١٨٧٣ وما بعدها .
- (٨) لم أعرض في كتابي المقدمة (Introduction) لباكشيوس ولا لفيلينوس لضياح مؤلفاتهما .

- وتلاههم الذي يشوب شخصيتهما . عن باكشويوس انظر 4 M. Wellmann, Pauly-Wissowa, vol. 4 p. 2790 (1896) وعن فيليينوس انظر '1938' pp. 2193-94 Deller, ibid. vol. 38 وكنث .
- الفائدة جمع فيه المؤلفات الأبقراطية التي عرفها باكشويوس وسوسوس وأروتينانوس على التوالي . وذلك في كتاب أبقراط Hippocrates (مكتبة لويب للأدب القديمة) المجلد الأول ص ٣٨ - ٣٩ من المقدمة .
- (٩) لم يكن سلسوس شارحاً ، ولكن بحثه الطبي باللاتينية De re Medicina حافل بالذكريات الأبقراطية . انظر الجدول المقارن المشتمل على النبد المتقابلة عند ابقراط وسوسوس في طبعة و . ج . سينسر (W.G. Spencer) (مكتبة لويب للأدب القديمة) ، المجلد الثالث (١٩٣٨) ، ص ٦٢٤ - ٦٢٧ . وقد ظهر كتاب سوسوس مطبوعاً قبل مؤلفات أبقراط وجالينوس وذلك سنة ١٤٧٨ .
- (١٠) ألف أروتينوس قاموساً أبقراطياً قيماً للغاية . وهناك تفاسير أخرى جمعها هيرودوت . ويستطاع جمع أمثاها من شروح جالينوس ، ونشر فرانز هذه التفاسير : (J.G.F. Franz) Erotiani Galeni et Herodoti glossaria in Hippocratem ex recensione Henrici Stephani, Leipzig. 1780. وأعاد ارنست ناخماسون نشرها نشرأ حديثاً : Ernest Nachmanson, Erotaianos Glossary, Uppsala, 1918.
- (١١) هل كتاب Peri ton gnesion Hippocratis syngrammaton مفقود حقاً ؟ ألا تشتمل عليه طبعة كون (Kuhn) ؟ فقد ورد في فهرس حنين تحت رقم ١٠٤ . انظر طبعة برجستراسر Bergstrasser (١٩٢٥) أو مقال مايرهوف Meyerhof في مجلة ايزيس Isis ، المجلد الثامن . ص ٦٩٩ (١٩٢٦) .
- (١٢) أبو الحسن على بن يحيى (توفي ٨٨٨) هو ابن يحيى المنجم . وكان يحيى هذا قد اعتنق الإسلام والتحق بخدمة الخليفة المأمون . وكان ابنه على كاتباً للخليفة المتوكل وجماعة للكاتب شديد الرغبة في العلم ، نقل إلى العربية الكثير من كتب جالينوس بطلب من المتوكل أو تحت رعايته . انظر مجلة ايزيس (Isis) المجلد الثامن ، ص ٧١٤ (١٩٢٦) . أما عيسى بن يحيى فيظن أنه أخوه .
- (١٣) المقدمة (Introduction) المجلد الأول ، ص ٤٨٠ . ينبغي إجراء تصحيحين في هذه النبذة : الأول ، أن يحيى النحوي (النصف الأول من القرن السابع) هو نفسه جان فيلوبونوس (النصف الأول من القرن السادس ، والثاني ، أن التاريخ الثاني هو الصحيح . ثم إن المؤلفات الطبية المنسوبة إلى يحيى هذا منحولة وتعيين تاريخ المجموعة البيزنطية لمؤلفات أبقراط أمر معتذر ، إذ ليس بين يدينا مخطوط قديم لها ، ولعل أقدم المجموعات البيزنطية نسخة عن مجموعة الإسكندرية لا أكثر .
- (١٤) نشر أ . ل . هايبرج I.L.Heiberg هذه القوائم تحت عنوان "Hippocratis indices librorum" في المجلد الأول من مجموع الطب اليوناني Corpus medicorum graecorum المجلد الأول (١٩٢٧) القسم الأول ص ١ - ٣ [مجلة ايزيس (Isis) المجلد الحادي عشر ، ص ١٥٤ (١٩٢٨)] .

(١٥) كلبس Klebs ١١٦ ، هذه إشارة إلى رقم ١١٦ في جدول المطبوعات القديمة في العلوم والطب ، "Incunabula scientifica et medica" الذي نشره ارندل ك . كلبس في مجلة أوزيريس (Osiris) المجلد الرابع ، ص ١ - ٣٥٩ (١٩٣٨) . وهي قائمة دقيقة التنسيق لجميع الكتب العلمية والطبية التي طبعت في القرن الخامس عشر . وسنستعمل هذه الإشارة المقتضبة فيما يلي دون إلحاقها بشرح ما .
(١٦) إن عدد المؤلفات من المطبوعات القديمة المنسوبة إلى كل منهم هي كما يلي :
١٥١ لألبير الكبير (النصف الثاني من القرن الثالث عشر) ، ٩٨ لأرسطو ، و ٥٢ لأبقراط . وهذه الأرقام تشتمل على الكتب الصحيحة والمنحولة معا . انظر مجلة أوزيريس (Osiris) ، المجلد ، الخامس ص ١٨٣ - ١٨٦ (١٩٣٨) .

(١٧) انظر مقال ج . سارتون (G. Sarton) في J.A. Van der Linden Singer Festschrift (أكسفورد ، مطبعة كلارندون ، ١٩٥٢) . إن الطبعات القديمة وفيها طبعة فان در لندون ؟ (١٦٦٥) وكذلك - فيما يظن - بعض الطبعات المتأخرة ، لم توضع لعلماء اللغة ، ولا للمؤرخين ، بل للأطباء وتلامذة الطب .

(١٨) راجع مجلة ايزيس (Isis) المجلد الحادي عشر ، ص ١٥٤ (١٩٢٨) .

(١٩) أعرف ما تكون المصنفات الأبقراطية بعناوينها اللاتينية ، فقد غدت هذه العناوين ذات رواج عالمي . وقد أشرنا عند الكلام عن كل منها إلى طبعة ليثريه ، ولويب ، والطبعة اليونانية اللاتينية corpus medicorum graecorum حيث تيسر لنا ذلك . وعلى الباحث عند درس أى واحد من هذه المصنفات أن يلتفت بنوع خاص إلى الشرح الجاليني ، فإذا كان هذا الشرح من وضع جالينوس نفسه ، ونقل إلينا ، أمكن الوقوف على نصه في الطبعة اليونانية اللاتينية التي أخرجها كارل جوتلوب كون Karl Gottlob Kuhn الموسومة ب Galeni opera omnia (عشرون مجلداً ، ليبترج ١٨٢١ - ١٨٣٣) ، والمجلد الأخير هو الفهرس العام للكتاب .

(٢٠) انظر طبعة ليثريه . المجلد السادس ، ص ٣٥٠ - ٣٩٧ ، وطبعة لويب ، المجلد الثاني ص ١٢٩ - ١٨٣ .

(٢١) انتماساً للسهولة سأشير في تضاعيف هذه الملاحظات باسم « أبقراط » إلى المؤلف أيا كان ، إذ تعذر إعادة البحث في هذا الموضوع عند الكلام عن كل واحد من تلك المصنفات .

(٢٢) ترد آراء من هذا النوع في الفصل الحادي والعشرين من الكتاب المذكور ، وكذلك في الفصل الثاني والعشرين من كتاب « الأهوية والأمواه والأمكنة » في عرض الكلام عن المرض السيثيان Scythian disease ، والتخنت عند فئة من الرجال . و « لكن الحق ، كما ذكرت سابقاً ، أن تلك الملل ليست أكثر قدسية ولا أقل من غيرها من الملل ، بل جميعها وكل واحدة منها طبيعية » . وقد يستفاد من هذا القول أن مؤلف (المرض المقدس) هو نفسه مؤلف « الأهوية والأمواه والأمكنة » .

(٢٣) أولريخ فون ويلاموفتزر - مولندورف Ulrich von Wilamowitz-Moellendorff (١٨٤٨ - ١٩٣١) ، مؤلف Griechisches Lesebuch (مجلدان في أربعة أجزاء ،

برلين ١٩٠٢ - ١٩٠٦) ، المجلد الأول ، ص ٢٦٩ - ٢٧٧ ، المجلد الثاني ص ١٦٨ - ١٧٢ .
انظر فيما يتعلق بمجوزيف بيدز Joseph Bidez (١٨٦٧ - ١٩٤٩) مجلة أوزيريس Osiris ،
المجلد السادس (١٩٣٩) . وقد عالج أوسوي تمكن Oswei Temkin هذا الموضوع معالجة أوفى في كتابه
« الانهيار العصبي » The falling sickness. A history of epilepsy from the Greeks to the
beginnings of modern neurology. (359 pp.; Baltimore: Johns Hopkins University
Press, 1945) (*Isis*) 36, 275-278 (1946)

(٢٤) ليتريه (Littre) ، المجلد الثاني ، ص ١١٠ - ١٩١ ، لويب ، المجلد الثاني ،
ص ١ - ٥٦ .

(٢٥) ليتريه Littre ، المجلد الثاني ، ص ٢٢٤ - ٣٧٧ ؛ لويب ، المجلد الثاني ،
ص ٥٩ - ١٢٥ ،

Chap. XXIII. (٢٦)

Chapter V. (٢٧)

Litré, vol. 9, pp. 1-75. (٢٨)

Introduction, vol. 2, p. 76. (٢٩)

Litré, vol. 2, pp. 598-717; 24-149; Loeb, vol. 1, pp. 141-287. (٣٠)

Chap. XII. (٣١)

Chap. XIV. (٣٢)

Litré, vol. 5, pp. 3-429. (٣٣)

Epidemics VI, 3, 18. (٣٤)

Epidemics V, 56. (٣٥)

Epidemics VII, 112. (٣٦)

Karl Deichgraber, "Die Epidemien und das Corpus Hippocraticum. (٣٧)

Voruntersuchungen zu einer Geschichte der Koischen Arzteschule,"

Abhandl. Preuss. Akad., Philos. Kl., nr. 3 (172 pp., quarto; Berlin, 1933).

(٣٨) تقع بيرنتوس Perinthos على شاطئ مرمرة الشهال في مقاطعة تراقيا قرب سليمانيا

Selymbria . وقد كانت في القرن الرابع تفوق بيزنطة خطورة .

Epidemics II., IV, أيضاً و Epidemics VI, 7, 1, etc. (٣٩)

Aphorisms 4, 33. (٤٠)

Epidemics VI, 32; Littre, vol. 5, p. 357. (٤١)

(٤٢) يقسم كتاب الأوبئة الثاني إلى ستة أقسام تشتمل على ١١٦ مادة ، ويقسم الكتاب

السادس إلى ثمانية أقسام فيها ١٦٠ مادة . أما الرابع والخامس والسابع فتتضمن تبعاً و ٦١ و ١٠٦

و ١٢٤ مادة . فمجموع المواد في المؤلف إذن ٥٦٧ مادة . ثم إن كلا من هذه المواد ، بوجه العموم ،

يعالج حادثة أو ملاحظة أو حكمة طبية واحدة ، على أن بعضها يتجاوز الموضوع الواحد ، كما في المادة التي أوردناها آنفاً ، والتي تجمع بين حادثتين من نوع واحد .

Withington, in Loeb, vol. 3, p. xii. (٤٣)

Littré, vol. 3, pp. 182-261; Loeb, vol. 3, pp. 2-51. (٤٤)

Littré, vol. 3, pp. 262-337; Loeb, vol. 3, pp. 54-81. (٤٥)

Littré, vol. 3, pp. 338-563; vol. 4, pp. i-xx, 1-395; Loeb, vol. 3, pp. 84-455. (٤٦)

Galen, XV, 456. (٤٧)

Introduction, vol. 3, p. 288. انظر التديك انظر (٤٨)

(٤٩) كانت كيتيون Cition إحدى المدن التسع الرئيسية في قبرص . أما أبولونيوس فقد تألق

نجمه في الإسكندرية . وللاوقوف على حكاية الأشكال الواردة في تعليق أبولونيوس راجع *Introduction* vol. 1, p. 219. وقد استنسخ هذه الأشكال هرمان شون Hermann Schone على نحو جميل للغاية في

كتاب *Illustrierter Kommentar zu peri arthron* (75 pp., 31 pls.; Leipzig, 1896).

Codex Laurentianus, lxxiv, 7. (٥٠)

Littré, vol. 1, pp. 557-637; Loeb, vol. 1, pp. 3-64; CMG, vol. 1, pp. 36-55. (٥١)

Chap. VIII. (٥٢)

(٥٣) كان المؤلف أول من استخدم اللفظة اليونانية hypothesis ولكن لا بالمعنى المعروف

اليوم، بل بمعنى الفرض الاعتباري الذي يتعدر إثباته. ونظرية الطبايع الأربع اقتراس من هذا النوع .

(٥٤) إن لفظة Technical مشتقة من اللفظة اليونانية techné ومعناها : الفن ، إلا

أنها تعنى أيضاً: « الطريقة »، وبذلك تصبح قريبة المدلول من لفظة Science، بل إن ذلك أشبه بما

بين اللفظتين الإنجليزيتين technical و scientific من مقارنة . فالفرق بين techné و episteme أو

Mathema في اليونانية قد لا يكون أعظم من الفرق بين المقصود بالمعرفة العملية والمعرفة النظرية .

Chap. IX. (٥٥)

(٥٦) يستخدم جونز في ترجمة Hippocrates في المجلد الأول ص ١٩ و ٥٣ ، لفظة hypothesis

في مقابل اللفظة اليونانية postulate لتلاني الالتباس، أما نحن فنقتصر اليوم استخدام اللفظة على الصالح

القيم من الفروض حتى نميزها من الفروض الواهية . على أن اللهجة في كلا القولين مدهشة في حداتها، إذ يتحدث

المؤلف وكأنه من علماء اليوم، فيقول: لا تعم لأول وهلة ولا تستعمل الأفكار إلا بعد أن يثبت قيمتها العملية .

Littré, vol. 6, pp. 1-27; Loeb, vol. 2, pp. 186-217; CMG, vol. 1, pp. 9-10. (٥٧)

Littré, vol. 6, pp., 29-69; Loeb, vol. 4, pp. 1-41. (٥٨)

Littré, vol. 6, pp., 70-87; Loeb, vol. 4, pp. 44-59. (٥٩)

(٦٠) يقع هذا النص في *Historia animalium* (3, 3, p. 512 b) والنبتة المقتبسة مأخوذة من

الفصل الحادى عشر من « طبيعة الإنسان » "nature of man" وهو وصف مشوش للأوردة .

W.H.S. Jones, *The medical writings of Anonymus Londinensis* (Cambridge (٦١)

University Press, 1947) p. 75 (*Isis* 39, 73 '1948')

(٦٢) آثرنا استخدام هذا التعبير بدلا من القول المعتاد « كيف نقص الوزن أو نزيده » لأن القدماء لم يذكروا الوزن أو لم يعد أحد منهم إلى وزن نفسه .

Littré, vol. 5, pp. 470-503; Loeb, vol. 4, pp. 62-95. (٦٣)

Littré, vol. 2, pp. 12-93; Loeb, vol. 1, pp. 66-137; CMG, vol. 1, part 1, (٦٤)

pp. 56-78.

(٦٥) هكذا يبدأ الفصل : « وزيادة على ذلك فإن الكثرة الغالبة من الرجال السيتيين يصبحون عنتين يشتغلون أشغال النساء ، ويعيشون عيشة النساء ، ويتحدثون بأحاديثهن . وقد دعوا أمثال هؤلاء الرجال Anaries (Anarieis) ويعرض هيردوت هؤلاء القوم بالذات ويطلق عليهم أسماء يكاد يكون الاسم السابق وهو Enarees (٦٧، 67، iv، 105، 1) والراجع أنها لفظة سبتية معادلة للفظه androgyne (خنثى) أو homosexual (لوطى) .

Littré, vol. 9, pp. 94-121; Loeb, vol. 1, pp. 337-361; CMG, vol. 1. (٦٦)

part I, pp. 79-84.

LV. Moisture the vehicle of nourishment الرطوبة ، عجلة التغذية (٦٧)

Chap. XXXVI. (٦٨)

End of Chap, XLIV. نهاية الفصل الرابع والأربعين (٦٩)

(٧٠) أثبتنا هنا الفصول الأول والثامن والتاسع والثامن والأربعين كاملة .

(٧١) براكساجوراس الكوسى (النصف الثانى من القرن الرابع) هو الذى قام بأول دراسات يونانية فى النبض « ومن بعده هيروفيلوس Herophilos الخلقدونى of Chalcedon (النصف الأول من القرن الثالث ق. م.) . وهذا يصلنا بالمصر الهيلينى . وقد لاحظ الأطباء الأبقراطيون دقات القلب الشديدة فى الحميات ، انظر (Littré's index s.v. "battement") وانظر النبذة الرابعة أعلاه .

Littré, vol. 6, pp. 116-137; CMG, vol. 1, part I, pp. 85-90. (٧٢)

Littré, vol. 6, pp. 462-663; Loeb, vol. 4, pp. 224-447. (٧٣)

Armand Delatte, *Les harmonies dans l'embryologie hippocratique* (Mélanges Paul (٧٤)

Thomas, pp. 160-171, Bruges, 1930). Joseph Needham, *A history of embryology* (Cambridge: University Press, 1934), pp. 13-19 (*Isis* 27, 98-102 '1937').

Book II, LXI-LXVI. (٧٥)

End of LXXXVII. (٧٦)

Jones, Loeb *Hippocrates*, vol. 4, p. lii. (٧٧)

Littré, Vol. 6, pp. 88-113; Loeb, Vol. 2, pp. 221-253; CMG; Vol. 1, part 1, (٧٨)

pp. 91-101.

(٧٩) لما كانت الزلازل تتوالى كثيراً في منطقة البحر المتوسط فإن الفلاسفة الأول أمثال أناكسيمينيس وأناكساجوراس وديمكريتوس حاولوا أن يضعوا تعليلاً منطقياً لها. وفي Meteorologia يقول أرسطو الذي بحث آراءهم : إن ظواهر الزلازل والبراكين تسببها رياح في جوف الأرض .

Archibald Geikie, *Founders of geology* (London, 1905), pp. 13-14.

J. Filliozat, *La doctrine classique de la medecine indienne* (Paris: Imprimerie (٨٠)

Nationale, 1949), pp. 161-190 (Isis 42, 353 '1951').

Jones, Loeb *Hippocrates*, vol. 2, p. xxviii. (٨١)

Littré, vol. 5, pp. 504-573. (٨٢)

Prorrhetic I, 16-Coan prenotions, 95. (٨٣)

(٨٤) Aristotle, *Historia Animalia* VIII, 22, 604 A. « تصاب الكلاب بثلاثة أمراض ،

الكلب ، والالتهاب التنقيسي في اللوزتين ، وألم الأقدام . فالكلب يجعل الحيوان في حالة من الهياج الشديد . وكل حيوان - إلا الإنسان - ينتقل إليه هذا المرض بالعدوى إن هو عضه كلب كلب . وهو مرض قاتل ، يقضى على الكلب نفسه وعلى كل حيوان يعضه - ما عدا الإنسان .

Littré, Vol. 4, pp. 450-609; Loeb, Vol. 4, pp. 98-221. (٨٥)

(٨٦) يوجد منه على الأقل ١٤٠ مخطوطة باليونانية ، و ٢٣٢ باللاتينية ، و ٧٠ بالعربية ،

و ٤٠ بالعبرية ، وبمجموع هذه ٤٨٢ مخطوطة ، وهناك عدد كبير منها في لغات أخرى .

(٨٧) يشتمل القسم الأول على العدد الأقل من الحكم (٢٥) والقسم السابع على العدد

الأعظم (٨٧) .

Aphorisms, I, 1. (٨٨)

Ibid I, 3. (٨٩)

Pott's disease «بوط» *Ibid.*, I, 13; II, 10; VI, 17, VI, 46. (٩٠)

وهو المسمى باسم الجراح الإنجليزي برسفال بوط (١٧١٤ - ١٧٨٨) . Percival Pott. .

Littré, Vol. 5, pp. 574-733. (٩١)

Littré, Vol. 8, pp. 542-549; Loeb, vol. 2, pp. 317-329. (٩٢)

Littré, Vol. 4, pp. 628-633; Loeb, Vol. 1, pp. 291-301; CMG, vol. 1. (٩٣)

part 1, pp. 4-6.

(٩٤) إيسوب هو المؤلف التقليدي للأمثال اليونانية ذات التاريخ البالغ التعقيد . وعن هيرودوت

(II, 134) أن إيسوب هذا المؤلف القصصي (ho logopoios) كان عبداً في ساموس في ملك أماسيس

Amasis (ملك مصر ٥٦٩ - ٥٢٥) . وقد دون سيرته ماكسيموس بلانوديس

Maximos Planudes (النصف الثاني من القرن الثالث عشر) Ben Edwin Perry, *Studies in the test history of the life*

and fables of Aesop (256 pp., 6 pls.; Haverford, Pennsylvania; American Philological

Association, 1936). Article "Fable," *Oxford classical dictionary*, p. 355.

Littré, vol. 4, pp. 638-643; Loeb, vol. 2, pp. 257-265; CMG, vol. 1, pp. 7-8. (٩٥)

Littré, vol. 9, pp. 198-221; Loeb, vol. 2, pp. 305-313, Chap. I only CMG, (٩٦)
vol. 1, part 1, pp. 20-24.

Littré, vol. 9, pp. 222-245; Loeb, vol. 2, pp. 269-301; CMG, vol. 1, part (٩٧)
1, pp. 25-29.

Chap. V. (٩٨)

Littré, vol. 9 pp. 246-273; Loeb, vol. 1, pp. 305-333; CMG, vol. 1, part 1, (٩٩)
pp. 30-35.

Introduction, vol. 3, p. 10. (١٠٠)

Introduction, vol. 3, pp. 247-248. (١٠١)

(١٠٢) هذه الكتب السبعة عشر ، إن لم تشكل دستوراً طبيّاً فهي تؤلف مجموعاً قائماً بنفسه ،
كل رسالة منه خليقة بأن تسترعى انتباه أى تلميذ من تلامذة جالينوس كائناً من كان. وهذه الكتب هي:
(De officina medici, Prognosticum (Praenotiones), De diaeta in acutis, Prorrhetic
(Praedicta), Epidemiorum libri, De fracturis, De articulis, De natura hominis,
De humoribus, De alimento, Aphorismi, De salubri victus ratione
(وجميع هذه مثبتة في الطبعة التي نشرها كون Kuhn لجالينوس ، وجميعها إلا الأخير منها
مثبتة في جدول حنين) .

De capitis vulneribus, De acre aquis locis, Iusiurandum, De ulceribus, De natura pueri.
(١٠٣) نشر هذا البحث بالعربية والألمانية جويتلف برجشتراسر (١٨٨٦ ١٩٣٣) .

Hunain ibn ishaq uber die syrischen und arabischen Galen-Uebersetzungen
(Leipsig, 1925)

ثم لخصه ماكس مايرهوف (١٨٧٤ - ١٩٤٥) في مجلة ايزيس (1926) Isis 8, 685-724 وقد أشرت
إلى كلا الكتابين بهذا الرمز: Hunain, No. x.

(١٠٤) وضعت كلمة مقالة في الترجمة العربية مقابل الكلمة اليونانية Tmema (أى قسم)
ووضعت لها في اللاتينية كلمة liber . وهذه الكلمات الثلاث متعادلة ، وإن كانت تمثل وجوهاً مختلفة
من المجاز .

(١٠٥) هذا النص مترجم عن النص العربي الذي نشره برجشتراسر (Hunain, No. 88) وكان
أيوب الزهاوى الأبرش (النصف الأول من القرن التاسع) ، يشتغل بالترجمة من اليونانية إلى السريانية ،
وكذلك جبريل بن بختيشوع (النصف الأول من القرن التاسع) . أما أحمد بن محمد المدير فكان
والياً كبيراً وراعياً للعلم ، انظر (Isis 8, 715 '1926) . وكان محمد بن موسى أحد بنى موسى
موسى بن شاكر الثلاثة (النصف الأول من القرن التاسع) الذين رعوا حركة النقل إلى العربية ، وعاش
محمد هذا حتى سنة ٨٧٢/٨٧٣ .

(١٠٦) الرأي المعتمد فيما يتعلق بالمسيح هو أن له طبيعتين (إنسانية وإلهية) لكن شخصه واحد .
وإدعى النساطرة أن هنالك طبيعتين وشخصين وبناء على ذلك دأبهم مجمع أفسوس سنة ٤٣١ . أما
اليعاقبة فقد اعتصموا بالنقيض لآخر مدعين أن المسيح ذو طبيعة واحدة وشخص واحد فدأبهم كذلك

مجمع خلقدون سنة ٤٥١ . وتم نقل العلوم من اليونانية إلى العالم الإسلامي على يد هذين الفريقين - (المتعارضين) من هراطقة المسيحية: النساطرة واليعاقبة . وكان الآسيويون من هذين الفريقين يتكلمون لغة واحدة هي السريانية وإن كانوا يكتبون خطين مختلفين . Introduction, vol. 2, p. 501. وعليه جرى التأييد العلمي اليوناني - السرياني - العربي في مجريين يستعيد الواحد ما في الآخر ويتحداه. ولا يتيسر هنا إيراد التفاصيل بعد أن بسطت الموضوع في كتابي . Introduction

Henri Pognon, *Une version syriaque des Aphorismes d'Hippocrate* (2 vols.; (١٠٧) Leipzig, 1903) وهي طبعة سريانية فرنسية . ويشير بونيون Pognon إلى أن واضع النص السرياني قد يكون سرجيوس Sergios بل قد يكون أقدم من ذلك (Vol. 1, p. xxx) ، وإن كان لا يدل على صحة هذا الرأي .

(١٠٨) لم أعرض هذا الشرح في كتابي Introduction . على أن في مكتبة الأسكوريال نسخة من شرح عبد الرحمن لكتاب الحكم الطبية انظر : H.P.J. Renaud's catalogue (Paris, 1941) No. 877 (Isis 34, 34-35 '1942-43').

(١٠٩) حتى إن الكتاب اللاتين نظير جان دي تورنيمير Jean de Tournemire (النصف الثاني من القرن الرابع عشر) دعوه بـ Flores Galieni للإمام بطلبعات فصول موسى العربية والعبرية واللاتينية، راجع Introduction vol. 2, p. 377, no. 8, وأيضاً Osiris 5, 109 (1938), Figs. 28-29. إن مجموع ابن ميمون أضخم جداً من مجموع أبقراط - ففيه نحو ١٥٠٠ حكمة في مقابل ٤١٢ .

(١١٠) عني بنشر نص Glosule amphorismorum secundum magistrum Maurum سلفتوري الرنزي Salvatore de Renzi بعنوان : Collectio salernitana (Naples, 1856), vol. 4, pp. 513-557.

Introduction, vol. 2, p. 1099, note. (١١١)

(١١٢) من المحتمل أن يكون الشرح المنسوب إلى برهرايوس قد وضعه مسيحي آخر اسمه كذلك أبو الفرج ، أقل منه شهرة ، وهو أبو الفرج يعقوب ابن القف الكركي (النصف الثاني من القرن الثالث عشر) ، وهو منسوب تخميناً في جدول رينو لمخطوطات مكتبة الأسكوريال إلى ابن القف . على أنه من المحتمل أيضاً أن يكون كل من الرجلين قد وضع شرحاً .

Introduction, vol. 2, p. 846. (١١٣)

Introduction, vol. 3, p. 248. (١١٤)

(١١٥) يعد جرمين لافوي Germaine Lafeuille دراسة على تلك الترجمة الفرنسية ، ستظهر في ١٩٥٣ - ١٩٥٤ .

Klebs, 564-3-6 (١١٦)

Introduction, vol. 3 p. 1195. (١١٧)

Klebs, 476. (١١٨)

Klebs, 1002. Dean Putnam Lockwood, *Ugo Benzi* (Chicago: University of Chicago Press, 1951) (Isis 43, 60-62 '1952').

Klebs 116. 1-6, 520. 1-2. (١٢٠)

Littre, vol. 4, pp. 446-457. (١٢١)

الفصل الخامس عشر

كوس من الناحية الأثرية

تنحكم شخصية أبقرات تحكماً تاماً في تطور الطب اليوناني القديم، وتتصل اتصالاً وثيقاً بجزيرة كوس، ولذا كانت التوطئة للموضوع من الناحية الأثرية لا تخلو من قيمة.

كانت كوس، رغم صغرها، مهداً لكثير من الأطباء^(١)؛ ومع ذلك في هذا ما يدعو إلى الحيرة، إذ يبدو أن أبقرات وزملاءه لم يمارسوا مهنتهم في كوس بقدر ما مارسوا في نواح أخرى بعيدة عنها من بلاد اليونان. ولو عرفنا هيلاس — حسب ما هو معلوم بصورة عامة — بجزر البحر الأيحي والأراضي المحيطة به (أى بلاد اليونان الأصلية في الغرب والبلقان في الشمال وأيونيا في الشرق وكرت في الجنوب)، لو عرفناها بذلك لوجدنا أن كوس كانت تقع قرب الزاوية الجنوبية الشرقية لتلك المنطقة، وأن الأطباء الأبقراطيين كانوا يمارسون عملهم في الجزء الشمالي منها، أى في تساليا ومقدونيا وتراقية. ولو أعد شخص قائمة بالمرضى الذين ورد ذكرهم في الحوادث الإكلينيكية، وبالأماكن التي كانت تلاحظ فيها الحالات المرضية، لوجد أن خبرة الأطباء الأبقراطيين إنما اكتسبت جلها في الشمال (كما هو محدد سابقاً)، ولم يكتسب منها في كوس سوى النزر القليل. وليس في الآثار الكتابية سوى إشارتين لمرضى كوسيين: الأولى تشير إلى «أخت الرجل الكوسى» التي كانت تقاسى تضخماً في الكبد^(٢)، والثانية تشير إلى ديدمارخوس في كوس^(٣)، وقد عولجت في كوس نفسها، أما الأولى فلا نستطيع أن نجزم بمكانها لأنه يجوز أن تكون أخت الكوسى قد تنقلت مبتعدة عن وطنها الأصلي. وفي كتاب آخر^(٤). وصفت خمر كوس «الشديدة القوة والدكنة» للمرضى مرتين^(٥). إلا أن الخمر من السهل

جداً أن تصدر، وإن كانت من النوع الجيد فإننا نستطيع أن نفترض أنها كانت تشرب خارج الجزيرة بالقدر الذي كانت تشرب فيه داخلها. وعلى ذلك نواجه مفارقة مؤداها أن الأطباء الأبقراطيين يشار إليهم كممثلين للمدرسة كوس أو نقابتها الطبية، بينما مارسوا أعمالهم في أماكن أخرى. حسبنا استطعنا تعيينه من أماكن نشاطهم. وفي سبيل إيضاح هذه المفارقة دعنا نتحدث بإيجاز عن تاريخ كوس. أشرنا (في الفصل الثالث عشر) إلى أن الجزيرة كانت غنية بإنتاجها ولا سيما العنب والحزير، ومن المستحسن أن ندرك أن رخاءها في أيام أبقراط والأيام التي تلتها لم يكن شيئاً مستحدثاً، إذ لم تكن كوس محدثة نعمة بين جزر ذلك البحر الجميل؛ بل كانت، بسبب ما فيها من رواسب عظيمة لصخور زجاجية بركانية، مركزاً تجارياً في العصر الحجري^(٦). وكان الكثير من هذه الصخور الزجاجية يستخرج من كوس نفسها، والكثير منها أيضاً—مما هو من نوع أنقى—يستخرج من جزيرة هيالي^(٧) التي تقع بين كوس وشبه جزيرة كنيديوس. وقد أكسبت تجارة الصخور الزجاجية تلك المنطقة (كوس وكنيديوس) نوعاً من التفوق، إذ أوجدت لها ثروة ومكنت من ازدهار الثقافة والعلم فيها. ومن المؤكد أنه كان في كوس أطباء يزاولون عملهم قبل الغزو والدوري بأمد طويل. جاء الدوريون على الأرجح من كريت حوالي القرن التاسع، وطردوا السكان الأصليين من الكاريين أو سلبوهم ما كانوا يملكون. ومن المحتمل أن يكون الدوريون هم الذين أدخلوا العبادات الأسكليبيوسية* فعملوا بذلك على إضفاء أهمية جديدة لفن الشفاء. ومن الجهة الأخرى كانت كوس في موقع ممتاز، عند ملتقى طرق كثير من الأمم مما جعل أهميتها التجارية دولية بحكم الضرورة. وكان للتجار الكوسيين معاملات تجارية مع بلاد اليونان وكريت، وكاريا وأيونيا، وآسيا وأوربا؛ وكانت علاقاتهم التجارية بالمدن الأيونية وثيقة جداً حتى إن كوس نفسها أصبحت، بالرغم من سيادة الدوريين عليها، مدينة أيونية إلى حد ما. وعلى أي حال، كانت ثقافتها الراقية أيونية لا دورية، واللهجة الأيونية فيها تعتبر لغة الكياسة والظرف.

إن رخاء الجزيرة وما كانت تنعم به من علاقات دولية كانا عاملين

* نسبة إلى اسكليبيوس إله الطب (المترجم).

ممتازين لنجاح أى نوع من أنواع الجهد العلمى ولكن هذا كله ليس إلا مجرد خميرة أولى لا بد لها من تدخل رجل عبقرى. ولقد أتيج لأسرة أبقرات ، إحدى الأسر الأسكلبيوسية ، أن تهى تلك الفرصة . وعلى ذلك لا غرابة فى أن تكون مدرسة الطب التى أنشأوها أو بعثوها من جديد قد ازدهرت مثل ذلك الازدهار ، وكان من الممكن أن تستمر فى ازدهارها لولا كوارث الحرب .

ومن المرجح أن يكون الفتح الفارسى قد سهل صيغ الجزيرة بالصبغة الأيونية . فكانت كوس ، وهى فى ظل دارا (ملك الفرس : ٥٢١ - ٤٨٥) جزءاً من ولاية فارسية ، وإذ كان المثقفون من سكانها يحبون إخوانهم اليونانيين ويكرهون أسيادهم الفرس ، فمن الطبيعى أن يلتقوا حول معلمهم الأيونيين وأن يقلدوا الكلام والأخلاق الأيونية - تلك التى كانت تمثل أرفع مثل هيلاس العليا آنذاك . وبعد الانتصار البحرى فى معركة ميكالى* سنة ٤٧٩ ألقوا بالنير الفارسى عن عواتقهم ، وأغراهم الأيونيون - عاجلاً أو آجلاً - بالدخول فى حلف أثينى ضد فارس ، ونتيجة لذلك دخلوا الحرب البيلوپونيزية إلى جانب أثينا ، واشترك تسالوس بن أبقرات فعلاً فى الحملة الصقلية المشهومة (٤١٥ - ٤١٣) . وكانت تلك الفترة فترة مفجعة لكوس . إذ دمرها زلزال^(٨) ، ثم غزاها الإسبرطيون بعد مدة وجيزة .

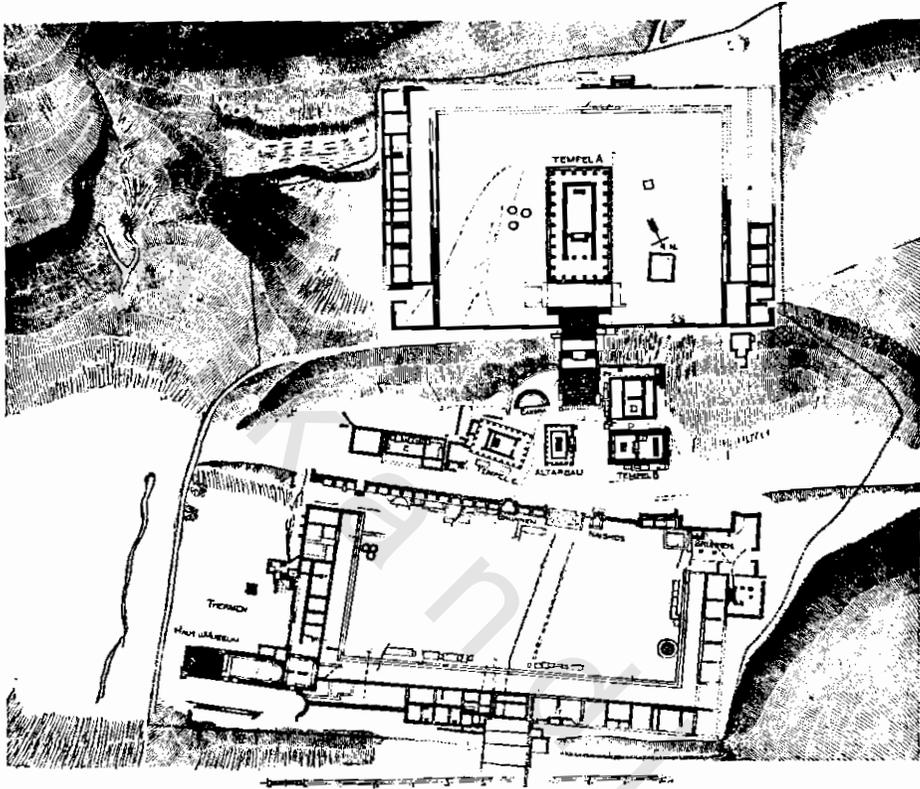
ونستطيع أن نقول إن عهد فتوة مدرسة أبقرات فى كوس كان يوافق نصف القرن الذى ساد فيه السلام بين معركة ميكالى وبدء الحرب البيلوپونيزية . تعلم أبقرات وأظهر عبقريته خلال تلك الفترة ، وما قام به هو وتلاميذه من عمل كان يجب أن يواصل فى مكان آخر . لأن حالة الاضطراب^(٩) التى سببتها الحرب لم تكن ملائمة للبحث العلمى ، فليس بغريب إذن أن ترك أبقرات وبقية أفراد أسرة الأسكلبياد وطنهم فى الجزيرة وبدأوا يحيون حياة التشرذ . وفى هذا ما يفسر المفارقة التى تبدو فى أن تعاليم أبقرات صيغ الكثير منها خارج كوس ، كما

* نسبة إلى رأس ميكالى من بلاد اليونان ، وفى هذه المعركة انتصر اليونان على الفرس بعد أن أحرقوا سفنهم ، وتخل الأيونيون عن سادتهم الفرس ، وانضموا إلى جيش مواطنهم . (المترجم) .

يفسر مفارقة أخرى هي ثبات المذهب الوضعي الأبقراطي (Hippocratic positivism) برغم وجود الميراث الأسكليبيادى . فبغض النظر عن قوة تأثير أسكليبيوس وشيوع هذا التأثير فقد نجا منه الأطباء الأبقراطيون ، وبدلاً من أن يتركوا أنفسهم تستولى عليها الطقوس السحرية حدث لهم عكس ذلك تماماً ، واستفاد هيكل أسكليبيوس في كوس فيما بعد من شهرة الأبقراطيين في سبيل غاياته الدينية .

لا نستطيع أن نقول متى بدأت العبادات الأسكليبيوسية في كوس ، ولكن آثار أقدم هيكل فيها لا ترجع إلى أبعد من القرن الثالث أو نهاية القرن الرابع . وقد اكتشف آثار هذا الهيكل أعضاء المعهد الأثرى الألماني في سنة ١٨٩٨ والسنوات التي تلتها . وبعد الحرب العظمى الأولى ، حين كانت الدوديكانيز في حوزة إيطاليا ، أجريت حفريات جديدة على أيدي أثريين إيطاليين (شكل ٧٥) . لم يكن الهيكل داخل مدينة كوس المسورة ، بل كان على بعد ميل ونصف إلى الغرب منها ، على سفح تل . وكان قائماً على ثلاث شرفات جبلية ولا يزال المرء يرى في أعلاها آثار هيكل أسكليبيوس الدورى مائلة بستة أعمدة في كل جانب عرضي وأحد عشر عموداً في كل جانب طولي . وفي الشرفة الوسطى توجد معابد صغرى ؛ وفي الشرفة المنخفضة متنزه يحيط به رواق معمد ، وفيه برّ مقدسة بقرها معبد صغير لنيرون (الإمبراطور من ٥٤ - ٦٨) على شكل الإله أسكليبيوس ، ومنشئ هذا المعبد طبيب يدعى ك . سترتينوس كسينوفون^(١١) . وأقدم إشارة إلى هذا الهيكل متأخرة نسبياً ، وقد وردت في كتاب «جيوغرافيكاً»^(١٢) لآسترابون (١ - ٢ ق م) ، ونصها : « وفي ضواحيها (أى كوس) يوجد الأسكليبيون ، وهو هيكل شهير جداً وملىء بنذور عديدة من بينها صورة أنتيجونس التي رسمها أبليس* وسلم كثير من النقوش التي يمتلىء بها الهيكل من العبث ، وهي تخلد ذكرى طقوس التطهير ، ودعوات حفلات الأعياد ،

* ابليس من أعظم الرسامين القدامى ، عاش في القرن الرابع قبل الميلاد ، وعاصر فيليب المقدوني وولده الإسكندر ، ومن أهم ما رسمه صورة أنتيجونس (المترجم) .



١٩٠٤

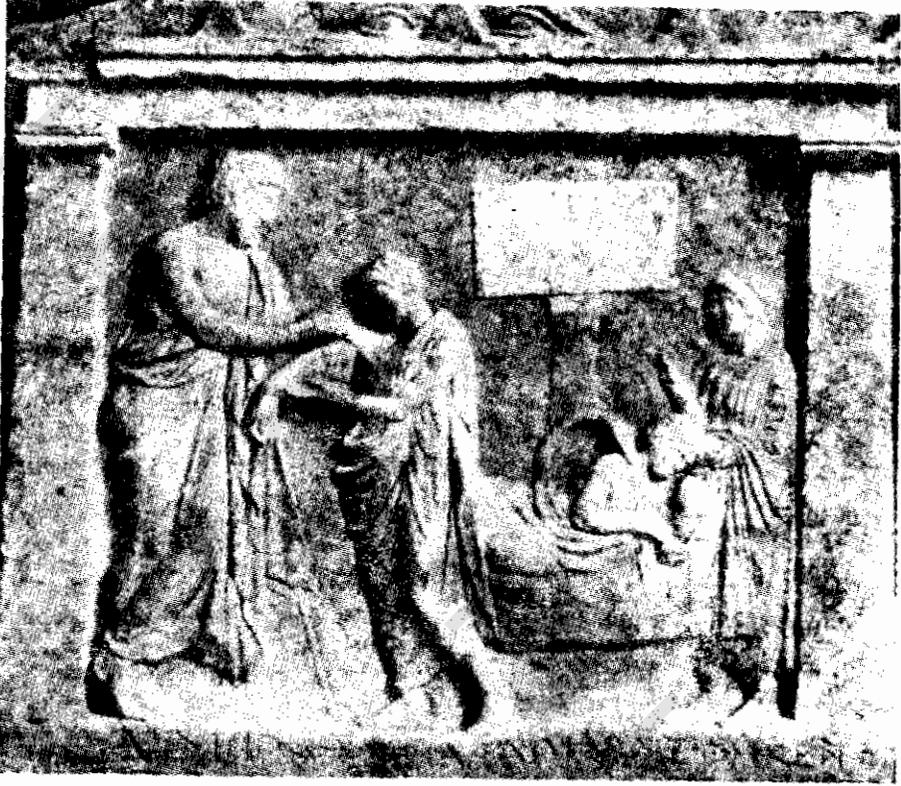
(شكل ٧٥) تصميم الأسكليبيون كما وضعه علماء الآثار الألمان سنة ١٩٠٤ ، وتظهر فيه الترفات الجبلية الثلاثة المتتالية ، وتبدو أعلاها في أعلى الشكل . وقد اكتشف علماء الآثار الطليان حديثاً شرفة رابعة يمكن أن تمثل في أسفل هذا الشكل ، انظر :

Schazmann, Asclepieion (Berlin, 1932), pl. 37



(شكل ٧٦) نذيرة تمثل رجلا يمسك أمامه بساق ضخمة فيها وريد متفخح .
الأصل محفوظ في المتحف الوطني بأثينا .

Mitt. Krl. deut. Archaeol. Inst., Athenische Abt., 18 (Athens 1893,), pl. 11.



(شكل ٧٧) نذيرة لأمفياروس تمثل منظر علاج (المتحف الوطني في أثينا) (عن :
 Maxime Gorce and Raoul Mortier, eds., Histoire générale des religions (Paris: Quillet,
 1944), vol, 2 p. 137.

شائعاً بجوارهم بين عامة الناس من طرق علاج ، ومقيدين بالمبادئ الأبيقراطية في الطب ، وإن طرق هؤلاء الكهنة كانت معقولة أكثر (أو أقل بعداً عن العقل) من تلك التي كانت تستعمل في هياكل إله الطب الأخرى ، وأهم لجأوا إلى العقل أكثر مما لجأوا إلى السحر ، أو أنهم استخدموا الأخير بصورة أقل ظهوراً^(١٣) . وليس من التكرار في شيء أن نعيد الحقيقة القائلة بأن الطرق التي كانت تستخدم في الهيكل (كالتدفئة ، والراحة ، وبث الثقة) كانت معقولة وممتازة . أما الطرق غير المعقولة التي كانت تستخدم في أبيدوروس وأماكن أخرى فقد كانت من ثمار سذاجة الشعب وطمع الكهنة .

وكل ما نستطيع قوله أنه لم تكتشف في كوس لوحات نذور ، يمكن أن تقارن بتلك التي اكتشفت في أبيدوروس . وهالك نصوص ثلاث قطع من نقوش أبيدوروس .

١ - حملت كليو مدة خمس سنين تقدمت بعدها للإله مبتهلة ضارعة ونامت في هيكل الأباتون^(١٤) . وعندما تركته وخرجت من جواره ولدت ولدًا غسل نفسه بعد الولادة مباشرة في الينبوع وسار مع والدته . إزاء هذا الفضل نقشت على لوحها المقدمة ما يلي : « ليست عظمة اللوحة هي التي تثير الإعجاب وإنما تثيره (المعجزة الإلهية) في أن كليو حملت حملها في رحمها خمس سنين حتى نامت في الهيكل وشفيت » .

٢ - وكان رجل من « تورون » يشكو من الديدان ، فرأى رؤيا خيل إليه فيها أن الإله شق صدره بسكين وأخرج منه الديدان ، وأعطاه إياها في يديه ، ثم أطبق صدره ثانية . وفي الصباح المبكر رحل والديدان في يديه ويرى تماماً . وكان قد ابتلعها في شراب أعدته له أم زوجها .

٣ - شفت أفعى إحدى أصابع قدمي رجل . وتفصيل ذلك أنه كان يقاسي ألماً من قرحة خبيثة في إحدى أصابع قدميه ، فأخرجه خدام الهيكل خلال النهار ووضعوه على مقعد . وحين طرق النوم عينيه ، خرجت أفعى من الأباتون وشفيت إصبعه بلسانها ثم قفلت راجعة من حيث أتت . وحين استيقظ المريض معاني قال إنه رأى رؤيا بدا له خلالها أن شاباً جميل الطلعة وضع دواء على إصبعه^(١٥) .



(شكلى ٧٨) أسكليبيوس وما يرمز به
إليه : أفعى ملتفة حول عصاه . . . مصنوع من
البرونز ومخروط في متحف برلين

W.H.Roscher, Ausführliches Lexikon der
griechischen und römischen Mythologie
Leipzig, 1884-1890, vol. I, p. 636.

ورد ذكر الأفاعى التى كانت تحتفظ فى هياكل إله الطب ثلاث مرات
حتى الآن (و.م.ورة رئيسية فى الفصل الثالث عشر) . ووجود الأفاعى واستخدامها
فى الطب يقينان الدليل على قدم العبادات الأسكليبيوسية ، إذ أن أهم ما كان
يقترن بالإله أسكليبيوس عصا وأفعى ، تلتف الأخيرة منهما حول الأولى على
العموم . وليس لنا أن نهمّ بالمعنى الحقيقى لذين الرمزين لأن القدماء لم يتفقوا
على تفسيرهما ، كما أن المحدثين من العلماء عاجزون عن عمل شىء فى هذا
الشأن أكثر من تكديس سلسلة من التخمينات ، وانظرون . هكذا كان الأمر
رحسب ؛ يجعل عجزز وقور ، يلتحى لحية كاملة ، ويحمل عصا ثقيلة تنساب
حولها أفعى ، إنه أسكليبيوس دون ريب ؛ ولا نحاول أن نثير أسئلة بعد ذلك .
(شكلى ٧٨ و ٧٩) (١٦) .

كان أسكليبيون كوس (الهيكال) مشهوراً في أيام الهيلينيين والرومان ، ولكنه قاسى الكثير على أيدي محطمي التماثيل والصور من المسيحيين في القرن الرابع ، وتهدم على أثر زلزال سنة ٥٥٤ .

ويمكن أن يضاف إلى البينات الأثرية روايتان متوارثتان محليا نميل إلى قبوطهما ، إن لم يكن بنصهما الحرفي ، فعلى الأقل لأنهما رمزان لشكر أبناء كوس وإخلاصهم الشديد لأشهر شخص من مواطنيهم .

أما الرواية الأولى فتتعلق بالشجرة العتيقة العريضة الأوراق القائمة في سوق المدينة الرئيسية في الجزيرة^(١٧)؛ إذ يدعى أن أبقراط علم تحت ظلها . والشجرة ، لا شك ، قديمة العهد جداً ، وتمتد غصونها فوق ساحة المدينة بأسرها ، كما تدعمها أعمدة رخامية أخذت من الأسكليبيون . ومن يدري ، فلعلها عاصرت أبقراط ، أو لعلها فرع لشجرة أخرى كانت موجودة في نفس المكان في زمنه . تذكر الأشجار العتيقة في حديقة الجثمانية* ، تلك الأشجار التي يقول الآباء الفرنسيون إنها كانت معاصرة للمسيح . إن شجرة كوس ، في الواقع ، لا بد أن تكون أقدم من أشجار زيتون القدس بأربعة قرون على الأقل .

وهناك جزيرة صغيرة تقع بالقرب من الساحل الجنوبي الشرقى لكوس تدعى بلا يونيسى ، يروى أن أبقراط كتب بعض كتاباته في خلوتها^(١٨) .

وباختصار كانت كوس وكنيدوس المتجاورتان مهدي العلاج العلمي . ولكون أسرة اسكليبياد - وهي أسرة أبقراط - من كوس ، أصبحت هذه الجزيرة أكثر شهرة من جارتها في القارة (كنيدوس) وكسفتها تقريباً . وقد بدأ الطب الأبقراطي في كوس ، ولكنه تطور بصورة رئيسية في شمال المنطقة التي يسكنها اليونان . ومن الممكن أن يكون بعض أفراد أسرة أبقراط قد بقوا في كوس وتابعوا التقليد المجيد الذي بدأ به . هذا، وفي القرن الثالث كان في بناء

* تقع هذه الحديقة على السفح الأدنى لجبل الزيتون في القدس ، وتتوسطها كنيسة فخمة . والإشارة هنا إلى أشجار الزيتون العتيقة في هذه الحديقة . (المترجم) .



(شكل ٧٩) تقديم الولاء لأفعى أسكليبيوس (متحف برلين). (عن كتاب)

Gorce and Mortier, Histoire générale des religions, vol. 2, p. 135.)

أسكليبيون (أو في بناء أسكليبيون جديد أوسع من السابق) مازاد من شهرة العلاج الوثني . ومن المحتمل أن يكون العلاج العلمي والديني قد وجدا جنباً إلى جنب في كوس كما يوجد الآن في بوسطن .

وطلاب الطب اليوناني أوفر حظاً من طلاب الشعر اليوناني ، لأنهم يستطيعون أن يردوا المكان الذي نشأ فيه أبقرراط وأطلق العنان لأحلامه . ويستطيعون أن يجلسوا في ظل شجرة عتيقة واسعة الأوراق فيتخذوا أن معلمهم جلس هناك منذ خمسة وعشرين قرناً . بينما يستحيل على المرء أن يتصور ظروف هوميروس وما كان يحيط به إحاطة مباشرة .

* * *

اعتمدت في دراسة تاريخ كوس وآثارها على المطبوعات التالية :

- F.H. Marshall, *Discovery in Greek lands* (Cambridge, 1920), pp. 82-84
 [*Isis* 4, 59 (1921-22)] .
- Karl Sudhoff, "Cos and Cnidos," *Ann. Medical History* 2, 13-19 (1930)
 [*Isis* 15, 199 (1931)].
- Archäologisches Institut des deutschen Reiches, *Kos. Ergebnisse der deutschen Ausgrabungen und Forschungen*, vol. 1, Paul Schazmann, *Asklepieion* (folio, 110 p., 57 pl., 1 map; Berlin, 1932).
- Aldo Neppi Modona, *L'esola di Cos nell'antichità classica* (Rhodes: Memorie dell'Istituto storico di Rodi, 1933), vol. 1. (folio, 240 pp., 18 pls., 2 maps).
- Emma J. and Ludwig Edelstein, *Asclepius. A collection and interpretation of the testimonies* (2 vols.; Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1945) [*Isis* 37, 98 (1947)].

تعليقات

- (١) راجع الفهرست لفظ : « كوس » .
- (٢) كتاب Epidemics الجزء الثاني ، الفصل الرابع والعشرون .
- (٣) كتاب Prorrhetic الجزء الأول الفصل الرابع والعشرون .
- (٤) كتاب De morbis internis الفصل الخامس والعشرون ، والفصل الثلاثون .
- (٥) كانت صخر كوس مشهورة . ويقول استرابون (الفصل الرابع عشر ، ص ٢ و ١٩) تكثر ألفواكه في جميع أجزاء كوس ولكنها كخيوس ولسيوس أكثرها ما تشتهر بجمها .
- (٦) هذا الزجاج البركاني شديد الصلابة والحدة ولذا يكون مادة ممتازة لأدوات العصر الحجري .
- (٧) هيليا مشتقة من هيالوس التي تعني البلور الصخري أو الزجاج . وقد اشتقت الجزيرة اسمها من مصدر ثروتها الرئيسي ؟ وهي تسمى اليوم إستروس .
- (٨) من المحقق أن زلزال سنة ٤١٣ - ٤١٢ لم يكن الزلزال الأول ولا الأخير كما سنى . وتؤيد الأساطير شهرة الجزيرة كمرکز زلزالي . فقد روى أن بوليبيوتيس ، أحد المرءة الذين حاربوا ضد الآلهة ، طارده بوسيدون (نيتيون) عبر البحر حتى كوس . ثم احتدم إله البحر (أي بوسيدون) غيظاً وكسر جزءاً من الجزيرة وألقاه على بوليبيوتيس فدفنه تحته . إن مختلئ هذه الأسطورة من العامة لم يختاروا كرس عبثاً ، بل اختاروها لعدم استقرارها المعروف .
- (٩) مما ضاعف حالة الاضطراب اختلاف عناصر سكان كوس . من محبي الهلنيين بطريق غير مباشر . ونستطيع أن نجزم بأن شعورهم بالعطف على الدوريين لم يجب ، وأن كثيرين منهم كانوا يعطفون على إسبرطة . وقد برهنت على ذلك برهنة تامة الحرب الاجتماعية التي بدأت سنة ٣٥٧ والتي كانت موجهة بصورة رئيسية ضد محمية أثينا . وحالفت كوس موسولوس ملك كاريا (٣٧٧ - ٣٥٣) الذي كان ضد أثينا كما كان ضد فارس ، وعقد الخليفان صلحاً مع أثينا سنة ٣٥٥ . وبقيت كوس تابعة لكاريا حتى سنة ٣٤٦ . ثم وقعت تحت حكم الإسكندر الأكبر ، وبعد وفاته أخذت الميول القومية تتأرجح بين مقدونيا وسوريا ومصر . ووصلت الجزيرة أوج مجدها تحت حكم البطالسة . وفي النصف الأول من القرن الثالث حباها الله بشاعرين هما فيليطاس وتلميذه تيوكريتوس السير الكوزي . وخلال العصر الروماني تمتعت كوس بنوع من الحكم الذاتي المحدود ، إذ كانت تتمتع بحريتها المدنية ضمن ولاية آسيا . وقد أعطى الإمبراطور كلوديوس (٤١ - ٥٤) الجزيرة امتيازات متنوعة متأثراً بطيبة كسينوفون الكوسي .
- (١٠) ك . استرتنيوس كسينوفون هو الطبيب نفسه المذكور في الحاشية رقم ٩ . كان رئيس أطباء كلوديوس وأجربينا ، ويتنحى إلى أسرة أسكليبيادية قديمة . أما أول كسينوفون كوسي فكان تلميذاً لبراكساجوراس الكوسي (القرن الرابع - النصف الثاني ق.م) (A.N. Modona, L'isola di Cos).

- (128) p. وأما النقوش التي تحوى تكريس كسينوفون فرسومة في اللوحة الثامنة من كتاب مودونا .
- (١١) جيوفراجيكا - سترابون, Strabon - الجزء الرابع عشر ، ص ٢ و ١٩ .
- (١٢) كثير منها مرسوم في كتاب : T. Meyer-Steinig und Karl Sudhoff, *Geschichte der Medizin im Ueberblic* (Jena, 1921; [*Isis* 4, 368 (1921-22)]; ed. 2, 1922) [*Isis* 5, 188 (1923)] William Henry Denham Rouse *Greek votive offerings* (480 p p. وكتاب 5, 188 (1923)] ill.; Cambridge, 1902: أو مقالة Rouse في موسوعة الدين والأخلاق المجلد الثاني عشر (١٩٢٢) ص ٦٤١ .
- (١٣) إبنى أنعم أن أسكليبيون كوس كان يوجه أموره ويتحكم فيه آل أسكليبياد ؛ بينما تقوم شواهد قديمة بعض القدم على دعم زعم معاكس مؤداه أن الأطباء كانوا قد حصلوا على معلوماتهم الأولية من الهيككل . وفي ذلك يقول سترابون (النصف الثاني من القرن الأول ق . م .) : « يقال إن فن المعالجة بالحمية الذى استخدمه أبقراط مأخوذ على الأكثر من العلاجات المدونة على لوحات النذور في كوس (كتاب الجغرافية, Geography, الجزء الرابع عشر ص ٢ و ١٩) . ويذكر بلينى (٢-١) حقيقة مشاهمة في الجزء التاسع والعشرين من كتابه « التاريخ الطبيعى » Natural History .
- ص ١ (٢) و ٤ ومن المرجح جداً أنهما (سترابون و بلينى) كانا مخطئين رغم أنى لا أنى إمكانية حدوث تبادل في التأثيرات الحسنة بين الهيككل والطبابة .
- (١٤) تعنى لفظة الأبتلون : (مكان) لا يداس ؛ حرم ؛ قدس الأقداس .
- (١٥) هذا النص مأخوذ من كتاب Asclepius, Edelstein (المجلد الأول) فقرة ٤٢٣ النصب الأول في أبيدوروس ، رقم ١ و ١٣ و ١٧ . ونقوش ذلك النصب تصف عشرين قضية ؛ وفي أعلاه كتب : « الله وحسن الطالع . ما شفاه أبوللو وأسكليبيوس » .
- (١٦) حين أنثى* القسم الطبي لجيش الولايات المتحدة اختار لنفسه عصا وأفعين ملتفتين حولها كشعار (مطرز على الملابس الرسمية إلخ) ؛ وكان ذلك خطأ إذ أن هذا لم يكن شعار اسكليبيوس إله الطب ، بل شعار هرمس (عطارد) إله التجارة والمواصلات .
- (١٧) هنالك صورة جميلة للشجرة في واجهة المجلد الرابع من كتاب Loeb, *Hippocrates* ، كما أن هنالك وصفاً لها في صفحة ١٠٩ .
- (١٨) روى هذه الرواية سنة ١٨٤٤ بعض مواطنى الجزيرة للعالم الألمانى Ludwig Ross (١٨٠٦ - ١٨٥٩) .

١٩٩١ / ٥١٦٦	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3365-X	الترقيم الدولى

١ / ٩١ / ١٧٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)